

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والستين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، وصاحب مصر السلطان الملك الناصر يوسف بن أيوب، وصاحب الشام وحلب وغيرهما الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، غير أنه توفي إلى رحمة الله في هذه السنة، على ما ذكره عن قريب ان شاء الله تعالى.

فلنبداً أولاً بما جريات صلاح الدين ثم ماجريات نور الدين، ثم نذكر وفاته ان شاء الله.

ذكر ماجريات صلاح الدين:

منها أنه ارسل أخاه شمس الدولة تورانشاه بن أيوب إلى اليمن، وكان صلاح الدين قد أقطعه قوص وأعمالها وارتفاعها مائة ألف دينار، ثم تجهز منها وسافر، ووصل زبيد، وقتل ابن المهدي صاحبها، وكان يلقب أمير المؤمنين، فلما قتله سير نواب الحصون مفاتيحها إليه، وهي واحد وأربعون حصناً.

وقال العماد: وفي رجب توجه توران شاه أكبر أخوة صلاح الدين إلى اليمن فملكها، وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمني، شاعر القصر، وكان كثير المدح لتوران شاه، فتجهز وسار إلى مكة، ثم إلى زبيد فملكها، وقبض على الخارجي بها وأهلكه نائبه سيف الدولة مبارك بن منقذ، ومضى إلى عدن فأخذها واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي، وفتح حصن تعز وغيره من القلاع.

وقال ابن شداد: ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره، وكثرة عدد أخوته وقوة بأسهم، وكان بلغه ان باليمن انسانا

استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه، يسمى عبد النبي بن مهدي، ويزعم انه ينتشر ملكه الى الارض كلها، فاستتب أمره، فرأى ان يسير إليها اخاه الاكبر الملك المعظم توران شاه، وكان كريما اريحيما، حسن الاخلاق، فمضى إليها، وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها، وكان اخو هذا الخارجي باليمن قبله.

وقال ابن أبي طي، وكان سبب خروج شمس الدولة الى اليمن انه كان كريما جوادا، وكان اقطاعه بمصر لا يقوم بفتوته، ولا ينهض بمروءته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد الى مصر ومدح اصحابها، فلما زالت دولتهم انضوى الى شمس الدولة ومدحه، وكان اذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة اموالها، وضعف من فيها، وأنها قرية المأخذ لمن طلبها، ومن جملة شعره قوله في القصيدة التي أولها:

العلم مذ كان محتاجا الى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم
كم تترك البيض في الاجفان ظامئة
الى الموارد في الاعناق والقمم
امامك الفتح من شام ومن يمن
فلا ترد رؤوس الخيل باللجم
فعمك الملك المنصور سومها
من الفرات الى مصر بلا سام

الآيات:

وله قصيدة أخرى منها قوله:

أفاتح أرض النيل وهي منيعة
على كل راج فتحها ومؤمل

متى توقد النار التي أنت قاذح
بغمدان مشوب أسناها بامندل
وتفتح مـايين الحصين وأيين
وصنعاء من حصن حصين ومعقل

الآيات:

وقال ابن أبي طي: ووافق ذلك أن كاتبه رجل من أهل اليمن يقال له هاشم بن غانم، وأطمعه لأن صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه وتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له وأطلق له مغل قوص سنة، وزوده فوق ماكان في نفسه، وأصبحه جماعة من الامراء، ومقدار الف فارس خارجا عمن سيره من حلقتة، وسار في البر والبحر: في البر العساكر وفي البحر الاسطول يحمل الازواد والعدد والآلات، فوصل الى مكة شرفها الله تعالى، فدخلها زائرا، ثم خرج متوجها منها الى اليمن، فوصل زبيد في أول شوال، فنزل عليها، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني وجمع الاشراف بنو سليمان في جمع جم وعدد كثير، فهجم زبيد وتسلمها واحتوى على مافيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخي علي بن مهدي، ثم رحل الى عدن وفي صحبته ابن مهدي ففتحها عنوة وولاه عز الدين بن الزنجيلي، ثم سار الى المخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي كتغز وغيرها، وسار الى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها، فأحرقت صنعاء، فدخلها شمس الدولة، فلم يجد فيها الا شيخا او امرأة عجوزا، فأقام بها ثمانية ايام، ثم لم يستطع المقام لقلّة الميرة، فرجع الى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي، وكان شمس الدولة قد استناب بزبيد الامير سيف الدولة المبارك بن منقذ، وأمره بحمله، فلما بعد شمس الدولة خاف ابن منقذ فساد أمره، فرأى المصلحة في قتله فقتله ابن منقذ بزبيد،

فلما بلغ شمس الدولة قتله استصوبه، ولما دخل شمس الدولة في زبيد
انفذ اليه صاحب الحمام^(١٥) وصالحه هو وباقي الملوك على اداء المال، ثم
تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها وكتب بذلك الى اخيه
الملك الناصر صلاح الدين، فارسل الى نور الدين يخبر بذلك، فأرسل
نور الدين مهذب الدين أبا الحسن علي بن عيسى النقاش بالبشارة
بذلك الى بغداد.

وذكر العماد الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ
المستتاب ووصفه بأنه من الكفاة الرماة والدهاة وذوي الآراء، وأنه فاضل
من أهل بيت فضل، كتب الى العماد من شعره:

لما نزلت الدير قلت لصاحبي
قم فاطلب الصهباء من شماسه
فأتى وفي يميناه كأس خلتهها
مقبوسه من نبراسه
وكان ما في كاسه من خده
وكان ما في خده من كاسه
وكان لذة طعمها من ريقه
وأريجها الفياح من أنفاسه
لم أنس ليلة شربها بفنائها
إذ بات يجلوها على جلاسه
إذ قام يسقي المدام وكلما
عاتبته رد الجواب براسه

ومدحه ابو الحسن بن الذروي المصري بقصيدة غراء ذاتية ما أظن انه
نظم على قافية الذال ارق منها لفظا وأروق معنى، اولها:
لك الخير عرج على ربهم فذي
ربوع يفوح المسك من عرفها الشذي
مبارك عيس السوفد باب مبارك
وهل منقذ القصاد غير ابن منقذ

وفي المرأة: لما سار شمس الدولة الى اليمن، وكان أعيانها قد كتبوا الى صلاح الدين يسألونه ان يبعث اليهم بعض أهله، فلما وصل شمس الدولة الى مكة صعد صاحبها الى أبي قبيس فتحصن فيه بقلعة بناها عليه، وأغلق باب الكعبة، وأخذ المفاتيح، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت وصلى ركعتين، وصعد الى باب الكعبة وقال: اللهم ان كنت تعلم اني جئت الى هذه البلاد لاصلاح العباد وتمهيدها فيسر علي فتح الباب، وان كنت تعلم اني جئت لغير ذلك فلا تفتحه، ومد يده ف جذب القفل بها، فدخل شمس الدولة الى البيت وصلى ودعا، فلما بلغ امير مكة ذلك نزل الى خدمته وحمل المفاتيح واعتذر وقال: خفت منك، والآن فانا تحت طاعتك، فقال: إذا اخذت منك مفاتيح مكة فلمن اعطيها؟ ثم خلع عليه وعلى أصحابه وطيب قلوبهم وسار الى اليمن، فانهزم عبد النبي بين يديه الى زبيد، وكان أبوه المسمى بالمهدي قد فتح البلاد، وقتل خلقا كثيرا، وشق بطون الحوامل، وذبح الاطفال على صدور امهاتهم، وكان يرى رأي القرامطة، ويظهر انه داعية لصاحب مصر، ويتستر بالاسلام، وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين وملك بعده ولده عبد النبي، ففعل باليمن أشد مما فعله أبوه وسبى نساءهم واستعبدهم، وكان أبوه لما مات بنى عليه قبة عظيمة وصفح حيطانها بالذهب الاحمر والجواهر ظاهرا وباطنا بحيث لم يعمل في الدنيا مثلها، وجعل فيها قناديل الذهب، وستور الحرير، ومنع أهل اليمن من زبيد الى حضرموت ان ينجوا الى الكعبة، وامرهم بالحج الى قبر أبيه، وكانوا يحملون اليه من الاموال كل سنة ما لا يحسد ولا يوصف ويطوفون حوله مثلما يطاف بالكعبة، ومن لم يحمل مالا قتله، وكانوا يقصدونه من البحر فاجتمع فيه أموال عظيمة، وأقام عبد النبي على الظلم والفسق والفجور وذبح الاطفال وسفك الدماء وسبى النساء الى ان دخل شمس الدولة الى اليمن، وجاء الى زبيد، فيقال انه حصر عبد النبي فيها وأمنه وقيده وقتله، ويقال انه انهزم بين يديه وجاء الى قبة أبيه فهدمها، وأخذ ماكان

فيها من المال والجواهر والفضة، وكان على ستائة جمل ونبس القبر وأحرق عظام أبيه وذراها في الريح ومضى الى صنعاء، فحلف شمس الدولة ان لا ينتهي عنه حتى يقتله ويحرقه كما فعل بأبيه، وصار خلفه فرجع الى زبيد، وعاد شمس الدولة اليها فظفر به وأخذ ما كان معه وقتله وصلبه وحرقه كما فعل بعظام أبيه.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما وصل شمس الدولة الى زبيد خرج اليه عبد النبي فقاتله فانهمز، وأسر شمس الدولة، وأسر زوجته الحرة وكانت ذات أموال جزيلة، فاستقرها على أشياء جزيلة وذخائر جلييلة، ونهب الجيش زبيد، ثم سار الى عدن فقاتله صاحبها ناشر فهزمه توران شاه وأخذ البلد بيسر ومنع الجيش من نهبها وقال: ماجئنا لنخرب البلاد، وانما جئنا لعمارتها وملكها، ثم سار في الناس سيرة حسنة عادلة فأحبوه واستوثق له ملك اليمن وخطب فيها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وقتل الداعي المسمى بعبد النبي.

ومنها ارسال صلاح الدين بالهدايا الى نور الدين رحمه الله.

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين، وهو الموفق ابن القيسراني، واجتمع بالملك الناصر، وانهى اليه رسالة نور الدين، وطالبه بحساب جميع ما حصل وارتفع اليه من ارتفاع البلاد، فصعب ذلك على السلطان واراد شق العصا، لولا ماثاب اليه من السكينة، ثم امر النواب بعمل الحساب وعرضه على ابن القيسراني، واره جريدة الاجناد بمبلغ اقطاع وكميات جامكيتهم ورواتب نفقاتهم، فلما حصل عنده جميع ذلك ارسل معه هدية الى نور الدين على يد الفقيه عيسى.

قال: ووقفت على برنامج شرحها بخط الموفق ابن القيسراني، وهي خمس ختمات: احدها ختمة ثلاثون جزءا مغشاة بأطلس أزرق مضببة

بصفائح ذهب وعليها اقفال ذهب مكتوبة بذهب بخط يانس، وختمه بخط راشد مغشاة بديباج فسستقي عشرة اجزاء، وختمه بخط ابن البواب، في مجلد واحد بقفل ذهب، وختمه بخط مهلهل جزء واحد، وختمه بخط الحاكم البغدادي، وثلاثة احجار بلخش: حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف، وست قصبات زمرد: قصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث، وقصبة وزنها مثقالان ونصف وقصبة وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلث وربع وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وحجر وزنه سبعة مثاقيل، وحجر أزرق وزنه ست وخمسون مثقالا وسدس ومائة عقد حوهر مختومة وزنها ثمانمائة وسبعون مثقالا، وقارورة دهن بلسان، وعشرون قطعة بلور، وقطعة جزع، وذكر تفصيلها ابريق يشم، طشت يشم، سقرق مذهب، صحون صيني وزبادي وسكارج وأربعون قطعة عود طيب: قطعتين كبار كرتان وزن احدهما ثلاثون رطلا بالمصري، والاخرى واحد وعشرون رطلا، ومائة ثوب أطلس وأربعة وعشرون بقيارا مذهبة، وأربعة وعشرون ثوبا حريري، وأربعة وعشرون ثوبا من الوشي حريرية بيض. وحلة فللي مذهبة، وحلة مرايش صفراء مذهبة. وذكر غير ذلك انواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون الف دينار مصرية، وعدة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه.

قال: وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل الى نور الدين لانه اتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد ومنها ما استهلك لان الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعوا عليهم من نهبهم واستبدوا بأكثرها، وقيل انها وصلت جميعها الى السلطان لانه اتصل به خبر موت نور الدين فأنفذ من ردها.

قال: وحدثني من شاهد هذه الهدية انه كان معها عشرة صناديق مال لا يعلم مقداره.

ومنها أن صلاح الدين صلب في رمضان منها جماعة من أعيان المصريين، فإنهم قصدوا الوثوب عليه، وإعادة الدولة العلوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم، فمنهم: عبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة، وعمارة بن علي اليمني الشاعر الفقيه الشافعي.

وفي تاريخ ابن كثير: اجتمع نجم الدين عمارة الشاعر اليمني الفقيه الشافعي مع جماعة من رؤوس الدولة الفاطمية الذين كانوا حكاما، فانفقوا فيما بينهم أن يعيدوا الدولة الفاطمية، وكتبوا الى الافرنج يستدعونهم اليهم، وعينوا خليفة من ذرية الفاطميين، ووزيرا وامراء في غيبة السلطان صلاح الدين ببلاد الكرك، ثم اتفق مجيئه، وحرص عمارة اليمني شمس الدولة تورانشاه على المصير الى اليمن ليخف الجيش ويضعف عن مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين، فخرج تورانشاه، ولم يخرج عمارة الى اليمن بل أقام بالقاهرة يفيض في هذا الحديث ويدخل المتكلمين فيه، وكان من أكابر الدعاة اليه المحرضين عليه، هذا وقد أدخلوا معهم في هذا الامر بعض من ينسب الى الملك الناصر، وذلك من قلة عقلهم وكثرة جهلهم، فخانهم احوج ماكانوا اليه وهو الشيخ زين الدين علي بن نجا الواعظ، جاء الى السلطان الملك الناصر فأخبره بما تمالأ القوم عليه، وبما انتهى أمرهم اليه، فأطلق له السلطان اموالا جزيلة، وافاض عليه حلاا جميلة، ثم استدعاهم السلطان واحدا واحدا فقرروهم فأقروا له بذلك فاعتقلهم، ثم استفتى الفقهاء في أمرهم فأفتوه بقتلهم وتبديد شملهم، فعند ذلك امر بصلب رؤوسهم وأعيانهم دون اتباعهم وغلمانهم، وأمر بنفي من بقي من جيش العبيدين الى اقاصي البلاد، وأفرد ذرية العاضد وأهل بيته في دار، فلا يصل اليهم اصلاح ولافساد، وأجرى عليهم من الارزاق كفايتهم، وقد كان عمارة معاديا للقاضي الفاضل، فلما احضر بين يدي السلطان قام القاضي الفاضل فاجتمع بالسلطان ليشفع فيه، فتوهم انه يكلمه فيه، فقال: يامولانا السلطان لاتسمع منه، فغضب القاضي الفاضل ونهض

وخرج من القصر، فقال له السلطان: انه كان قد شفع فيك، فندم ندما عظيما ولما ذهب به ليصلب اجتاز بدار القاضي، فطلبه فتغيب عنه فأشدد عند ذلك:

عبد الرحيم قد احتجب
ان الخلاص هو العجب (١٦)

وفي تاريخ الدولتين: وكان صلب المذكورين يوم السبت ثاني شهر رمضان، وكان الذين صلبوا منهم: الفضل بن كامل بن الكامل القاضي، وابن عبد القوي الداعي، والعويرس، وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك، وشهريا كاتب السر، وعبد الصمد أحد امراء المصريين، ونجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني أرمني قال لهم: ان أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمنى الشاعر.

قال العماد في البرق: ووصل من صلاح الدين يوم وفاه نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية، وهو بخط ابن قريش، يعني المرتضى.

وفي قضية عمارة يقول العلامة تاج الدين الكندي رحمه الله، قال أبو شامة: نقلته من خطه:

عمارة في الاسلام أبدى خيانة
ويايع فيها يعة وصليبا
وأسمى شريكك الشرك في بغض أحمد
فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته
تجد منه عودا في النفاق صليبا
سيلقى غدا ما كان يسعى لأجله
ويسقى صديدا في لظى وصليبا

قلت: والصليب الأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب،
والثالث من الصلابة، والرابع هودك العظام، وقيل هو الصديد أي
يسقى مايسيل من أهل النار، نعوذ بالله منها.

وقال ابن أبي طي: وكان داعي الدعاة يعلم بدقائق القصر، فعوقب
ليعلم بها فامتنع من ذلك، فمات واندرست.

ذكر ماجريات نور الدين رحمه الله:

منها: أن نور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها، ومليح
ابن لاون متملك الأرمن في خدمته، ووصل إلى خدمته أيضاً ضياء الدين
مسعود بن قفجاق، صاحب ملطية، وكان في خدمته أيضاً الأمراء من
البلاد، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم من الفرات، فبذل له
صاحبها خمسين ألف دينار على سبيل الجزية ثم عاد إلى حلب، وأراد أن
يسرع إلى دمشق، فتوقف لمرض سريته، فتصدق عنها بألف، والتزم لله
في شفائها بنذور ووقوف، ثم سيرها في محفة تحمل على أيدي الرجال،
وتأخر نور الدين جريدة مع عدة من مماليكه، ثم سار على طريق سلمية،
فجاء الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران، فثنى إلى الجهاد العنان،
وسمع الفرنج به فتفرقوا، ودخل دمشق.

ومنها أنه في جمادى الأولى أبطل فريضة الأتبان، وكتب بذلك منشورا
وعلامته بخطه «الحمد لله» يقول فيه: «وبعد فإن سنتنا العادلة، وسير
آبائنا الزاهرة، وعوائد دولتنا القاهرة إشاعة المعروف، وإغاثة الملهوف.
وانصاف المظلوم، وإعفاء رسم ماسنه الظالمون من جائزات الرسوم،
ومانزال نجدد للرعية رسماً من الاحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون في
حياضه، ونستقري أعمال بلادنا المحروسة، ونصفيها من الشبه
والشوائب، ونلحق مانعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه

من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله تعالى الكافل لنا بشيوع المواهب، وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ماجرت، العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير، وقصر حجاج والشاغور والعقبة ومزارعها الجارية في الأملاك، وجميع مايقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفرناه على أربابه طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهرباً من انتقامه وأليم عقابه، وسبيل الثواب اطلاق ذلك على الدوام وتعفية آثاره، والاستغفار من أوزاره والاحتراز من التدنس بأوضاره، وإبطال رسمه من الدواوين لاستقبال سنة تسع وستين ومابعداها على تعاقب الايام والسنين».

ومنها أن نور الدين تكلف في هذه السنة بإفادة الألطاف والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقات، وتوفير النفقات، وكسوة نسوة الأيامي في أيامها، واغناء فقراء الرعية وانجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذل وعون الضعفاء، وتقوية المقترين بعدله.

ذكر وفاة نور الدين: والكلام فيه على أنواع.

الأول: في ترجمته.

هو السلطان الجليل الملك العادل، أبو الغنائم نور الدين محمود بن الملك الأتابك، قسيم الدولة عماد الدين أبي سعيد زنكي ابن الملك الأتابك أقسنقر، الملقب بقسيم الدولة، أيضاً المعروف بالحاجب، ابن عبد الله، وكان أقسنقر مملوك السلطان ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي، كما ذكرنا، فنور الدين أيضاً تركي سلجوقي ولاء.

ولد قبل طلوع الشمس يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة احدى

عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ في كفالة والده صاحب حلب والموصل وغيرها من البلدان الكثيرة، وتعلم الفروسية والرمي.

الثاني: في ألقابه.

السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط نور الدين، وعدته ركن الدين، وسيفه قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومقرها، ورضي الامامة وأمرها، فخر الملة ومفتخرها، شمس المعالي وفلكها، سيد ملوك الشرق والغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين.

ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته، وقال: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي.

وروي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني يأمره أن يكتب له صورة ما يدعى له على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب، ولئلا يقول مالمس فيه، فكتب ابن القيسراني كلاماً ودعا له فيه، ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آقسنقر، ناصر أمير المؤمنين، فإن هذا ما يدخله كذب ولا مزيد، فكتب نور الدين على رأسها بخطه: مقصودي أن لا يكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بما لأعمل.

الثالث: في صفته:

قال ابن خلكان: كان أسمر اللون، طويل القامة، حسن الصورة، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه .

وقال ابن كثير: كان حلو العينين، واسع الجبين، تركي الشكل، ليس له لحية الا في حنكه.

وفي المرأة: وكان معتدل القامة، واسع الجبهة بلحيته شعرات خفيفة في حنكه، ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة.

الرابع: في سيرته.

كان ملكاً مهيباً متواضعاً، عليه جلاله نور الاسلام، وتعظيم قواعد الشرع.

وقال ابن خلكان: وكان ملكاً عادلاً، زاهداً، عابداً، ورعاً، مستمسكاً بالشرعية، مائلاً إلى أهل الخير، مجاهداً في سبيل الله.

وفي تاريخ الدولتين: ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصالحين، وجمع الله له من العقل المتين والرأي الثاقب الرصين، والافتداء بسيرة السلف الماضيين، والتشبه بالعلماء الصالحين والاصغاء لسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم، والاتباع لهم في حفظ مالمهم ودقتهم، حتى روى في حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث، رجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً، كما جاء في الحديث.

فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يهره، فإذا فاضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره، يحب الصالحين ويواخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم، وإذا احتلم مما ليكه أعتقهم وزوج ذكرانهم بانائهم ورزقهم، ومتى تكررت الشكاية إليه من واحد من ولاته أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكايته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل قابله

باسقاط المنزله والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال يسر له جميع ما يقصده من الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكن له في البلدان والبقاع.

وفي تاريخ ابن العميد: وكان ملكاً عظيماً جليلاً، عابداً سخيّاً كريماً صالحاً، معدوداً من الأبدال.

وفي تاريخ ابن العميد: وكما اشتهر من قلة ابتهاجه بالشعر لما علم من تزيد الشعراء، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، زاهد الخلفاء.

قال يحيى بن محمد الوهراني، في مقامة له، وقد سئل في بغداد عن نور الدين: هو سهم للدولة شديد، وركن للخلافة شديد. وأمين زاهد، وملك مجاهد، تساعد الافلاك، وتعضده الجيوش والاملاك، غير أنه عرف بالمرعى الويل لابن السبيل، وبالمحل الجذب للشاعر الاديب، فما يرزى ولا يعزى، وما لشاعر ﴿عنده من نعمة تجزى﴾ [الليل ١٩] وإياه عنى أسامة بن منقذ بقوله:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا

فكل على الخيرات منك — ش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة

من المعاصي وفيها الجوع والعطش (١٧)

وقال صاحب التاريخ: ما كان يبذل أموال المسلمين الا في الجهاد، وما يعود نفعه على العباد، وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيرز، وهو من سادات التابعين بالشام، قال يعقوب بن الحافظ: حدثنا ضمرة عن الشيباني قال: كان ابن الديلمي من أنصر الناس لأخوانه، فذكر ابن محيرز في مجلسه، فقال رجل: كان رجلاً بخيلاً، فغضب ابن الديلمي وقال: كان جواداً حيث يحب الله، بخيلاً حيث تحبون، وأما شعر ابن

منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في ليله الميلاد يمدح نور الدين:
في كل عام للبرية ليلة
فيها يشب النار بالايقاد
لكن لنور الدين من دون الورى
ناران نار قرى ونار جهاد
أبدأ يصرفه نأنداه وبأسه
فالعام أجمع ليلة الميلاد
ملك له في كل جيدمنة
أبهى من الأطواق في الأجياد
أعلى الملوك يدا وأمنعهم حمى
وأنداهم كفأ يذل تلاد
يعطي الجزيل من النوال تبرعا
من غير مسألة ولا ميعاد
لا زال في سعد وملك دائم
مأدامت الدنيا بغير نفاد (١٨)

ولقد أكثر ابن منير وابن القيسراني والعماد الكاتب وغيرهم في مدح نور الدين بالكرم والجود وذلك كله يرد قول الوهراني وابن منقذ، على أن ابن منقذ قد ردنا شعره بشعره كما تراه، وإنما الشعراء وأكثر الناس كما قال الله في وصف قوم ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا﴾ في القرآن العظيم قوله: ﴿منها إذا هم يسخطون﴾ [التوبة ٥٨] وما كل وقت يتفق العطاء، ويفعل الله ما يشاء.

الخامس: في شجاعته.

كان يقال: إنه لم ير على ظهر الفرس أحسن ولا أثبت منه، وكان حسن اللعب بالأكرة، وربما ضربها ثم يسوق وراءها ويأخذها من الهواء بيده ثم يرميها إلى آخر الميدان، ولم ير جو كأنه يعلو على رأسه، ولا يرى الجوكان في يده لان الكم ساتر لها، وكان شجاعا صبورا في الحرب

يضرب به المثل في ذلك، وكان يقول: قد تعرضت للشهادة غير مرة، فقال له مرة الفقيه قطب الدين النيسابوري: بالله يامولانا لا تخاطر بنفسك، فإنك لو قتلت قتل جميع من معك وأخذت البلاد، فقال: اسكت يا قطب الدين، من هو محمود، ومن كان يحفظ البلاد قبلي ﴿الله الذي لا إله إلا هو﴾ [الحشر ٢٢] قال: فبكى من حضر.

وكان إذا حضر الحرب شد تركاشين، وحمل قوسين، وياشر الحرب بنفسه، وشجاعته ظاهرة في غزواته، وفتوحاته على ماذكر في السنين المتقدمة.

السادس: في ورعه وزهده.

وقال ابن الأثير في تاريخه: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من قبل الاسلام إلى يومنا هذا فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم ملكا أحسن سيرة من نور الدين، ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه.

وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله: وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه الا من ملك اشتراه من سهمه من غنائم الكفار، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال فأفتوه من جهات عينوها فلم يتعد الى غيرها، ولم يلبس حريرا قط ولا ذهابا ولا فضة، ومنع من بيع الخمر في بلاده، وكان يحذ شاربها، والناس عنده سواء في ذلك، وكان كثير الصيام وله أوراد في الليل والنهار، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها، ثم يتم أوراده، وكان قد تزوج الخاتون بنت معين الدين أنر، فطلبت منه زيادة نفقة، وقال: وقد فرضت لها ما يكفيها، والله لأخوض جهنم بسببها، وهذه الأموال ليست لي وإنما هي للمسلمين وأنا خازنهم فلا أخونهم فيها، ولي بحمص ثلاث دكاكين اشتريتها من الغنائم قد وهبتها لها، وكان يحصل منها قدر يسير.

وكان أول من بنى دار العدل بدمشق وسماها دار الكشف، وسببه أن
الامراء لما قدموا دمشق اقتنوا الاملاك واستطالوا على الناس وخصوصاً
أسد الدين شيركوه، وكثرت الشكاوى الى القاضي، فلم يقدر على
الانصاف من أسد الدين، فشكوا إلى نور الدين، فأمر ببناء دار العدل،
فأحضر أسد الدين شيركوه أصحابه وديوانه وقال: إن نور الدين مابنى
هذه الدار الا بسببي وحدي لينتقم مني، وإلا فمن هو الذي يمتنع على
كمال الدين، والله لئن أحضرت الى دار العدل بسبب واحد منكم
لاصلبته، فإن كان بينكم وبين أحد منازعة فأرضوه مهما أمكن، ولو أتى
على جميع ما في يدي، فان خروج أملاكي من يدي أهون من أن يراني
نور الدين بعين الظالم ويسوي بيني وبين آحاد العوام، ففعلوا وأرضوا
الخصوم، فجلس نور الدين في دار العدل وقال للقاضي: ما أرى أحدا
يشكو من شيركوه، فأخبره الخبر، فسجد فقال: الحمد لله الذي جعل
أصحابنا ينصفون من نفوسهم قبل حضورهم عندنا، وكان نور الدين
يقعد في دار العدل في كل اسبوع أربعة ايام أو خمسة، ويحضر عنده
العلماء والفقهاء، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب، ويوصل إليه الشيخ
الضعيف والعجوز الكبيرة، ويساءل الفقهاء عما أشكل عليه.

وكان إذا مات أحد من جنده، أو قتل وله ولد فإن كان كبيراً أقر
الاقطاع عليه، وإن كان صغيراً رتب معه من يتولى أمره الى ان يكبر، وما
كان أحد من الأمراء يتجاسر أن يجلس عنده من هيئته، فإذا دخل فيه
فقير أو عالم أو رب خرقه قام ومشى إليه وأجلسه إلى جانبه، ويعطيهم
الاموال، فإذا قيل له في ذلك، يقول: هؤلاء لهم حق في بيت المال، فإذا
قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا.

وأسقط ما كان يؤخذ من دار البطيخ وسوق الخيل والغنم والكيالة
وجميع المكوس، وعاقب على شرب الخمر، وكان كثير المطالعة في الكتب

الدينية متبعا الآثار النبوية مواظباً على الصلوات الخمس في الجماعات عاكفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصدًا في الانفاق، متحريراً في المطعم والمشرب والملبس، لم تسمع منه كلمة فحش قط لا في رضاه ولا في غضبه، هذا مع ما جمع الله فيه من العقل المتين والرأي الصائب الرصين، والاقتداء بسنة السلف الصالحين، حتى روى حديث المصطفى وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصاً منه على الخير ونشر السنة والتحديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث، وكان يكتب خطاً حسناً، وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، وليس عنده تعصب على أحد، والمذاهب كلها سواء.

وقال ابن الأثير: كان يوماً يلعب بالأكرة في ميدان دمشق، فجاء رجل فوقف بازائه وأشار إليه، فقال للحاجب: أسأله ما حاجته؟ فسأله، فقال لي مع نور الدين حكومة، فرمى الصولجان من يده وجاء إلى مجلس القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري، وتقدمه الحاجب يقول للقاضي: قد قال لك: لا تنزعج واسلك معه ما تسلكه مع آحاد الناس، فلما سوى بينه وبين خصمه وتحاكما، فلم يثبت للرجل عليه حق، وكان يدعي ملكاً في يد نور الدين، فقال نور الدين للقاضي والعدول: هل ثبت له عليّ حق؟ قالوا: لا، قال: فاشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك، وقد كنت أعرف أنه لاحق له عندي، وإنما حضرت معه لئلا يقال عني أنني دعيت إلى مجلس الشرع فأبيت.

قال: ودخل يوماً إلى خزائنه فرأى مالا كثيراً فقال: من أين هذا؟ قال خازنه: بعث به القاضي كمال الدين من فائض الاوقاف، فقال: ردوه إليه وقولوا له: إن رقبتي دقيقة لا تقدر على حملة غدا، وأنت رقبتي غليظة تقدر على حملته، وكان له برسم نفقته الخاص في كل شهر من

الجزية ما يبلغ ألفي قرطاس يصرفها في كسوته وملبوسه ومأكوله حتى
أجرة خياطه وجامكية طباخه، ويستفضل منها ما يتصدق به في آخر
الشهر، ويقال ان قيمة القراطيس مائة وخمسون درهما، وقيل كل ستين
قرطاسا أو سبعين بدينار.

قال ابن الأثير: وما كان يصل إليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعثه الى
القاضي كمال الدين يبيعه، ويعمر به المساجد المهجورة ولا يتناول منه
شيئا.

وقال ابن الجوزي: وكان يتدين بطاعة الخلافة، والطرق آمنة في أيامه،
والمحامد كثيرة، وكان يميل إلى التواضع ويحب العلماء وأهل الدين، وقد
كاتبني مرارا، وقد صنف له كتابا سماه الفخر النوري فيه أحاديث العدل
والجهاد ومواعظ، وغير ذلك، وصنف نور الدين أيضا كتابا في الجهاد
وهو بدمشق.

وقال السبط رحمه الله: كانت له عجائز بدمشق وحلب، وكان يخطط
الكوافي ويعمل السكاكر للابواب وتبيعه العجائز ولا يدري أحد، فكان
يوما يصوم ويفطر على اثائها.

وحكى شرف الدين يعقوب ولد المبارز المعتمد ان في دارهم سكرة
من عمل نور الدين، وهي باقية الى سنة خمس وستائة يتبركون بها.

وفي المرأة: قال: حكى لي رجل صالح من أهل حران، قال: لما قتل
أتاكب زنكي على قلعة جعبر، وملك نور الدين قلعة حلب تصدق وأزال
المكوس، ورد المظالم، وأنا حديث عهد بعرس، وقد ركبني دين، فقالت
لي زوجتي قد سمعت أوصاف نور الدين واحسانه الى الناس، فلو
قصدته وأنيت إليه ذلك لقضى دينك، قال: فخرجت من حران وليس
معي سوى درهمين، فتركت عندها درهما وتزودت بدرهم وأتيت الفرات

وقت القائلة فعبرت جسر منبج وأبعدت عن أعين الناس، وخلعت ثيابي ونزلت فتوضأت للصلاة وصليت ركعتين وإذا إلى جانبي شخص ملفوف في عباءة، فقال لي: يا فقير من أين أنت؟ قلت: من حران، قال: وإلى أين؟ قلت: إلى حلب، قال: وماتصنع فيها؟ فقلت: أنا فقير مديون، وقد بلغني احسان نور الدين إلى الخلق فقصدته لعله يقضي ديني، فقال: وأين أنت من نور الدين، ومن يوصلك إليه، كم عليك دين؟ قلت: خمسون ديناراً فأخرج يده من العباءة وبحث الرمل وأخرج منه قرطاساً وألقاه إلي، وقال: خذ هذا فاقض به دينك وارجع إلى أهلِكَ، قال: فأخذته فعدده وإذا به خمسون ديناراً، فالتفت فلم أراه، فبهت وبت في مكاني أتفكر هل أرجع إلى حران أم أمضي إلى حلب، وترجع عندي المضي إلى حلب، وقلت في نفسي: فهذه أوفي بها ديني فمن أين أتقوت؟ ثم قمت وقصدت طريق حلب، فبت بباب بزاعة، وقمت في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقت الصباح، وقعدت تحت القلعة، وإذا فتح بابها ونزل نور الدين في أبهة عظيمة والامراء بين يديه حتى جاء إلى الميدان، فلما أراد أن يدخل نظر إلى فرمقني طويلاً وأشار إلى خادم بين يديه، فجاء الخادم إليّ وقال: قم، فأخذني وصعد بي إلى القلعة، قال: فندمت على مجيئي حلب، وقلت: ياليتني قبلت من ذلك الرجل الصالح، ولعل نور الدين توهم أنني اسماعيلي.

قال: فلما كان بعد ساعة عاد نور الدين إلى القلعة وجلس في الإيوان، ومد سباط عظيم، ولم يمد يده إليه، وإذا قد فتح باب عن يمينه صغير وخرج منه خادم وعلى يده طبق خوص مغطى بمنديل فوضعه بين يديه، وفيه غضارة عليها رغيف فتأملها من بعيد وهي ثردة فتناول منها شيئاً يسيراً وأكل الناس وأكلت معهم، وصرف الناس وبقيت قاعداً خائفاً فأومأ إليّ، فقامت وأتيت إلى بين يديه وأنا خائف أرعد، فقال: من أين أنت؟ قلت: من حران، قال: وما الذي أقدمك؟ قلت: علي دين وبلغني احسانك إلى الناس فقصدتك لتقضي ديني، قال: وكم دينك؟ قلت:

خمسون ديناراً، قال: أما أعطاك صاحب العباءة أمس على الفرات
خمسین ديناراً، هلا رجعت إلى أهلك وأنت عليك خرقه الفقر، وإذا
حصل القوت للفقير فلا يطلب شيئاً آخر، ثم قال: مانضيع تعبك،
ورفع سجداته وكانت زرقاء، وإذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني
صاحب العباءة.

قال: فبكيت بكاء كثيراً وقلت: لا آخذه حتى تخبرني بصاحب
العباءة، قال: هو أمر لا يلزمك، فقلت: يامولاي أنا غريب وضيع ولي
حرمة، فبالله عليك أخبرني، فقال: احلف لي أنك لا تتحدث بهذا في
حال حياتي فحلفت له، فكشف القباء وإذا بتلك العباءة على جسده،
وقال: أنا ذاك الفقير، فقلت: بالله الذي أعطاك هذه المنزلة بأي شيء
وصلت إلى هذا؟ فقال: بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ
الْحَسَنَى﴾ [الأنبياء ١٠١]، قال: لما التقينا بالافرنج على حارم ونصرنا الله
عليهم وعدت إلى حلب التقاني في الطريق شاب حسن الوجه طيب
الرائحة فسلم علي، وقال: يا محمود أنت من الأبدال، وقد أعطاك الله
الدنيا فاشتر بها الآخرة وسله مهما شئت، ثم علمني كلمات، وقال: إذا
طلبت أمراً فاذكرها، فقلت له: فبالله من أنت؟ فقاتل: أنا أخوك
الخضر، ثم غاب عني، فإذا عزمت على أمرٍ أو أردت أن أذهب إلى مكة
أو المدينة أو إلى أي بلد شئت لبست العباءة، وتكلمت بتلك الكلمات
وأغمض عيني وما أفتحها إلا وأنا في تلك البقعة.

قال السبط أيضاً: وحكى لي نجم الدين الحسن بن سلام، أحد عدول
دمشق وأعيانها، وكان صديقنا وصاحبنا رحمه الله، قال: لما ملك الأشرف
ابن العادل دمشق وبنى مسجد أبي الدرداء في القلعة وأفرده عن الدور،
قال: وما صلي فيه أحد منذ زمان أبي الدرداء إلى الآن، فقلت له: الله
الله يامولانا مازال نور الدين منذ ملك دمشق يصلي فيه الصلوات
الخمس، فقال: من أين لك هذا؟ قلت: حدثني والدي - وكان من

أكابر عدول دمشق، وكان أبوه يلقب بالسعيد - أنه لما نزلت الفرنج على دمياط بعد وفاة أسد الدين شيركوه رحمه الله، وضايقوها وأشرفت على الأخذ، فأقام نور الدين عشرين يوماً صائماً لا يفطر الا على الماء، فضعف وكاد يتلف ، وكان مهيباً لا يتجاسر أحد أن يخاطبه في ذلك، وكان له إمام يقال له يحيى ضرير يصلي به في هذا المسجد، وكان يقرأ عليه القرآن، وله عنده حرمة، فاجتمع إليه خواص نور الدين وخدمه وقالوا له: قد خفنا على السلطان ونحن من هيئته مانقابلة، وأنت تدل عليه، ونحن نسألك أن تسأله أن يتناول شيئاً مما يحفظ به قوته فقال: نعم إذا صليت به غداة الفجر سألته، قال: فلما كان في تلك الليلة رأى الشيخ يحيى في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: يا يحيى بشر نور الدين محمود برحيل الفرنج عن دمياط، قال: فقلت: يا رسول الله ربما لا يصدقني، وأريد له أمانة، قال: قل له: «بعلامة يوم حارم».

قال: فانتبه يحيى وهو ذاهب العقل، فلما صلى نور الدين خلفه الفجر وسلم شرع يدعو، ففاته أن يتحدث معه، فقال له نور الدين: يا يحيى، قال: لبيك يامولانا، قال: تحدثني أو أحدثك؟ قال: فارتعد يحيى وخرس فقال له: أنا أحدثك، رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الليلة، وقال لك كذا وكذا، فقال: نعم يامولانا، فقال: يامولانا مامعنى قوله عليه السلام: «بعلامة يوم حارم» فقال له نور الدين: لما التقى الصفان يوم حارم خفت على الاسلام لأنى رأيت من كثرة الفرنج ما هالني، فانفردت عن العسكر ونزلت فمرغت وجهي على التراب وقلت: ياسيدي من محمود في الدين، الدين دينك، والجند جندك، وهذا اليوم هو، فافعل ما يليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم.

السابع: فيما فعله من الخيرات ومابناه من بيوت العبادات وغيرها.

وكان نور الدين رحمه الله بنى المدائن وأوقف الاوقاف، وبنى سور

دمشق والمساجد والمدارس، ووقف أوقافاً على المرضى والمجانين، وبنى المكاتب لليتامى، وبنى المارستان في دمشق، ووقف على سكان الحرمين وأقطع أمراء العرب القطائع لئلا يتعرضوا للحاج، وأمر باكمال سور المدينة، وأجرى إليها العين التي تأخذ من أحد من عند قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الربط والخانات والقناطر، وجدد كثيراً من قني السبيل، ووقف كتباً كثيرة في مدارسه، وأول من بنى دار العدل بدمشق، وقد ذكرناه، وبنى جامعاً في الموصل، وفوض عمارته إلى الشيخ عمر الملاء، وكان من الصالحين، وإنما سمي الملاء لأنه كان يملأ تنانير الآجر، ويأخذ الاجرة فيتقوت بها، وكان لا يملك شيئاً من الدنيا، وكان عالماً بفنون العلوم، وجميع الملوك والعلماء والأعيان يزورونه ويتبركون به، وصنف كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يعمل بمولد رسول الله عليه السلام في كل سنة، ويحضر عنده صاحب الموصل والأكابر، وكان نور الدين يحبه ويكاتبه، وكان مكان الجامع النوري خربة واسعة ماشرع أحد في عمارتها الا وقصر عمره، فأشار عمر على نور الدين بعمارته جامعاً، فاشتراها وأنفق عليها أموالاً كثيرة، يقال ستون ألف دينار، ويقال ثلاثمائة ألف دينار، فتم في ثلاث سنين، ولما تم جاء نور الدين إلى الموصل - وهي المرة الأخيرة - فصلى فيه، ووقف عليه قرية بالموصل ورتب فيه الخطيب والمؤذنين والحصار والبسط وغيرها، ثم دخل عمر الملاء على نور الدين وهو جالس على دجلة، فوضع بين يديه أوراق الحساب والخرج، وقال: يامولانا أشتهي ان تنظر فيها، فقال له نور الدين: ياشيخ نحن عملنا هذا لله دع الحساب إلى يوم الحساب، ثم رمى بالأوراق في الدجلة.

وقال ابن الأثير: وبنى جامع حماة على العاصي وهو من أحسن الجوامع.

قال: ووقع بيد نور الدين أفرنجي من أكابر الملوك ففدى نفسه بهال

عظيم، فشاور نور الدين أمرائه فأشاروا ببقائه في الاسر خوفاً من شره، فأرسل إليه نور الدين في السر يقول: أحضر المال، فأحضر ثلاثمائة ألف دينار، فأطلقه نور الدين، فعند وصوله الى مأمته مات، وطلب الأمراء سهمهم من المال، فقال نور الدين: ما تستحقون منه شيئاً لانكم نهيتهم عن الفداء، وقد جمع الله لي الحسنين: الفداء وموت اللعين، وخلّص المسلمين منه، فبنى بذلك المال مارستان دمشق ومدرسة ودار الحديث بدمشق، ووقف عليها الاوقاف.

قال ابن الأثير: وبلغني ان اوقاف نور الدين في أبواب البر بالشام في وقتنا هذا - وهو سنة ثمان وستمائة كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها ملك، بل حق ثابت بالشرع باطنا وظاهراً، صحيح الشراء.

وقال السبط: أما في زماننا هذا فقد تشعث وقفه وتغيرت صفاته، ولم يبق منه الا آثاره وبركاته

وقال ابن الأثير: وفي سنة وفاته أكثر من الخيرات والصدقات والاقواف، وعمارة المساجد المهجورة، واسقاط كل ماكان فيه من الحرام، فما أبقي سوى الجزية والخراج وماتحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج:

قال [العماد]: وأمرني بكتابة المناشير، فكتبت أكثر من ألف منشور وحسبنا ماتصدق به في تلك الشهور فكان ثلاثين ألف دينار.

وقال العماد: بنى جامع قلعة دمشق ومسجد عطية بباب الجابية، ومسجد الرماحين، ومسجد سوق الصاغة ومسجد دار البطيخ، ومسجد العباسي، ومسجداً بجوار بيعة اليهود، ومسجد الكشك، وأشياء أخر.

وقال ابن الجوزي: وكان من عزمه أن يفتح البيت المقدس، فعمر

منبراً وقبلة بجامع حلب على اسم القدس، فتوفي قبل الفتوح، فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس، حمل المنبر إليه وأبقى القبلة بجامع حلب.

وحكي عن الشيخ أبي عمر شيخ المقدسة رحمه الله قال: كان نور الدين رحمه الله يزور والدي الشيخ أحمد رحمه الله في المدرسة الصغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للدير، ونور الدين بنى هذه المدرسة والمصنع والفرن.

وقال ابن خلكان رحمه الله: وبنى نور الدين المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل: دمشق، وحلب، وحماة، وحمص، وبلبك، ومنبج، والرجة، وبنى جامع الرها، وجامع منبج، ودار الحديث بدمشق.

وقال النويري في تاريخه: وأحصيت أوقافه، وكانت في كل شهر تسعة عشر ألف دينار مصرية من وجه حل: أما من إرث والده أو من سهمه في الغنيمة، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام مثل: دمشق، وحمص وحماه، وحلب، وشيزر، وبلبك، وغيرها، لما هدمت بالزلازل.

وقال ابن كثير: وبنى المارستان الذي بدمشق، وهو أحسن ما بني من المارستانات بالبلاد، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه، فلا يمنع منه الأغنياء ومن جاء إليه مستوصفاً، فلا يمنع من شربه، ولهذا جاء نور الدين إليه وشرب من شرابه.

وقال ابن كثير: ويقول بعض الناس: إنه لم تحمد النار فيه منذ بني إلى زماننا هذا والله أعلم، وقد بنى الخانات في الطرقات والابراج والخفر في الاماكن المخوفة، وفيها الحمام الهواذي التي تطالع بالاخبار في أسرع مدة، وبنى الربط والخانقاهات.

وقال ابن الأثير: وهو أول من بنى دار الحديث، ووقف على من يعلم
الايتم الخط، وجعل لهم نفقة وكسوة، وعلى من يقرأ آي القرآن وعلى
المجاورين بالحرمين، وكان الجامع بدمشق داثراً، فولى نظره للقاضي كمال
الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري الموصللي الذي قدم عليه، فولاه
قاضي القضاة بدمشق فأصلح أموره، وفتح المشاهد الأربعة، وقد كانت
حواصل الجامع بها من حين احترق في سنة احدى وستين وأربعمائة.

وأضاف إلى أوقاف الجامع الاوقاف التي لايعرف واقفوها، ولا تعرف
شروطهم فيها، وجعلها قلماً واحداً، وسمي مال المصالح ورتب عليه
ذوي الحاجات والفقراء والمساكين والارامل والايتم وما أشبه ذلك،
وأحاط السور على حارة اليهود وكان خراباً، وأغلق باب كيسان، وفتح
باب الفرج ولم يكن هناك قبله باب بالكلية.

وحكى الشيخ شهاب الدين أن نور الدين وقف بستان الميدان سوى
الغيط الذي قبله، نصفه على تطيب جامع دمشق، والنصف الآخر
يقسم على أحد عشر جزءاً جزآن على تطيب المدرسة التي أنشأها
للحنفية والتسعة الاجزاء الباقية على تطيب المساجد التسعة، وهي:
جامع الصالحية بجبل قاسيون، وجامع القلعة، ومسجد عطية، ومسجد
ابن لييد بالفسقار، ومسجد الرماحين المعلق، ومسجد العباسي بالصاغة،
ومسجد دار البطيخ المعلق، والمسجد الذي جدده نور الدين بجوار بيعة
اليهود، لكل من هذه المساجد جزء من أحد عشر جزءاً من النصف.

الثامن: في فتوحاته وبلاده.

قال النويري: وكان قد اتسع ملكه جداً، وخطب له بالحرمين ومصر
والشام وحلب وديار بكر والجزيرة، وكذلك باليمن لما ملكها الملك
المعظم تورانشاه بن أيوب بن شادي، وطبق ذكره الارض بحسن سيرته

وعدله وكرمه وصدقاته، وتصدق في شهر واحد بثلاثين ألف دينار،
وقسم في يوم واحد مائتي ألف دينار خلاف الدواب والسلاح والخيام،
وكان يحضر أمثال البلد عنده ويعطيهم الذهب ويقول: تصدقوا به على
من تعرفونه في جواركم من الارامل والايام.

وقال ابن الجوزي: ولي نور الدين الشام سنين وجاهد بالثغور، وانتزع
من أيدي الكفار نيفا وخمسين مدينة وحصناً، منها: الرها، وكان محباً
للعلماء وأهل الدين، وكاتبني مراراً، وعاهد ملك الفرنج صاحب
طرابلس، وقد كان في قبضته أسيراً، على أن يطلقه بثلاثمائة ألف دينار
 وخمسين ومائة حصان، وخمسمائة زدرية ومثلها أتراس أفرنجية، ومثلها
قنطاريات، وخمسمائة أسير من المسلمين، وأنه لا يغير على بلاد الاسلام
 سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأخذ منه في قبضته على الوفاء
 بذلك مائة من اولاد كبراء الفرنج وبطارقتهم، فإن نكث أراق دمهم،
وعزم على فتح بيت المقدس فوافته المنية في شوال من هذه السنة.

وذكر الحافظ ابن عساكر رحمه الله فتح نور الدين رحمه الله نيفا
 وخمسين حصناً، منها: تل باشر. وعيتاب، واعزاز، ومرعش، وبهسنى، وتل
 خالدة، وحارم، والمرزبان، ورعبان، وكيسون، والرها، وكسرا برنس انطاكية
 وقتله، وقتل معه ثلاثة آلاف، وأخذ من القومض ثلاثمائة ألف دينار
 وخمسمائة زدرية، وخمسمائة حصان، وخمسمائة أسير، واتسع ملكه، ففتح
 الموصل والجزيرة وديار بكر والشام، والعواصم، ودمشق، وبعلبك
 وبانياس، ومصر، واليمن، وخطب له في الدنيا، وأظهر السنة بحلب،
 وأزال الأذان بحج على خير العمل، وكان يتعرض للشهادة، ويسأل الله
 تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير.

التاسع: في وفاته:

قال العماد: وأمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر، قال: ونظمت للهنا بالعيد والطهر قصيدة منها:

عيدان فطر وطهر
وفتح قرييب ونصر
كلاهما لك فيه
حقاً هناء وأجر
وفيها بالتها ناني
رسم لنا مستمر
طهارة طاب فيها
أصل وفرع وذکر
نجل على الطهر نمام
زكاه منك نجر
محمد الملك العباد
للكريم الاغر
وبابنه الملك الصبا
لح العيون تقدر
مولى به اشتد للبد
يمن والشرعة ازر

وهي قصيدة طويلة آخرها:

هذا الطهر ورظهور
على الزمان وأمر
وذا الختان ختام
بمسكه طاب نشر

قال: وفي يوم العيد ركب نور الدين على الرسم المعتاد، محفوفاً من الله بالاسعاد، والقدر يقول له: هذا آخر الاعياد، ووقف في الميدان

الاخضر، ورمى القبق، وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الاخضر، وأمر بوضع المنبر، وخطب له القاضي شمس الدين بن الفراش، قاضي العسكر، بعد ان صلى به، وعاد الى القلعة وأنهب سباطه العام، على رسم الاتراك وأكابر الاملاك.

قال: ثم حضرنا على خوانه الخاص في يوم الاثنين ثاني العيد، بكر وركب ودخل الميدان والعظماء يسايرونه وفيهم همام الدين مودود، وكان قديما في أول دولته والي حلب، فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغتر بأيامه: هل نكون هاهنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟! فقال نور الدين: قل: نكون بعد شهر، فإن السنة بعيدة، فجرى على منطقهما ماجرى به القضاء السابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر، وهمام الدين لم يصل الى العام.

ثم شرع نور الدين في اللعب بالاكرة، فاعترضه أمير يقال له يرناقش وقال له: باش، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، وكان ذلك على خلاف مذهبه، ونهره وزجره، ثم ساق ودخل القلعة واحتجب فبقي اسبوعا في منزله، ثم اتصل به مرض، وأشار عليه الاطباء بالفصد فامتنع من ذلك، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل يوم الاربعاء حادي عشر شوال من دار الفناء الى دار البقاء.

وقال ابن شداد: وكانت وفاة نور الدين بسبب خوانيق اعترته عجز الاطباء عن علاجها.

وقال ابن الاثير: وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير الى مصر لاختها من صلاح الدين، فإنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته فأرسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليركها بالشام لمنعه من الافرنج، ليسير هو بعساكره الى مصر، وكان المانع من

صلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد ان نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، وكان نور الدين لا يرى الا الجدد في غزوهم بجهد وطاقته، فلما رأى اخلال صلاح الدين بالغزو، علم غرضه فتجهز للمسير إليه فأثابه أمر الله الذي لا يرد.

قال: وحكى لي طبيب بدمشق يعرف بالرحبي، وهو أحذق الاطباء قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الاطباء، فدخلنا عليه وهو بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكنت الخوانيق منه، وقارب الهلاك، فلا يكاد يسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعب في أكثر أوقاته، فابتدأ به المرض، ينتقل عنه، فلما دخلنا عليه ورأينا ما به قلت: كان ينبغي أن لا يؤخر إحضارنا عندك إلى أن يشتد المرض الى هذا الحد، فالآن ينبغي ان تنتقل الى مكان فسيح، فله اثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدواء، ومات عن قريب.

قال ابن عساكر: وتوفي يوم الاربعاء الحادي عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسة ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل الى تربة تجاور مدرسته التي بناها لاصحاب ابي حنيفة رضي الله عنه جوار الخواصين في الشارع الغربي.

وقال العماد: قلت في ذلك:

عجبت الى الموت كيف اهتدى

الى ملك في سجايا ملك

وكيف ثوى الفلك المستدير

في الارض والارض وسط الفلك

وقال ابن كثير: حصلت له علة الخوانيق ومنعته عن النطق، فمات في التاريخ المذكور، وصلي عليه بجامع القلعة ودفن بها حتى حُول الى تربة

التي بنيت له بباب المدرسة التي أنشأها للحنفية وقبره بدمشق مشهور،
يزار ويخلق شبابه فيستطيب رائحته كل مار، وإنما يقول الناس: نور
الدين الشهيد، لما حصل له من الخوانيق، وكذا كان يقال لأبيه الشهيد،
ويلقب بالقسيم، وكانت الأفرنج يقولون له ابن القسيم.

وقال ابن خلكان: ويقول أهل دمشق إن الدعاء عند قبره مستجاب،
وقال القاضي: ولقد جربت ذلك فصيح، وكان عمره حين مات ثمانيا
وخمسين سنة، وله في الملك ثمان وعشرون سنة.

العاشر: فيما رثي به، وما قيل له من الأشعار:

قال العماد: ومما نظمته في مرثية نور الدين قصيدة:

لفقد الملك العادل
بيكي الملك والعادل
وقد أظلمت الأفق
ق لاشمس ولا ظلل
ولما غاب نور الدين
عننا أظلم الحفل
وزال الخصر
وممات الباس والجود
وعاش اليأس والبخل
وعز النقص لما هان
أهل الفضل والفضل
وما كان لنور الدين
لولا نجله مثل

وقال أيضاً:

يا مملوك أيامه لم تزل
لفضله فاضلة فاخره
ملكست دنياك وخلفتها
وسرت حتى تملك الآخرة

وكان الواعظ أبو عثمان المتجب بن أبي محمد الواسطي من
الصالحين الكبار أنشد لنور الدين بقوله:
مثل وقوفك أيها المغرور
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ
إن قيل نور الدين رحمت مسلما
فاحذرب أن تبقى ومالك نور
نهيئت عن شرب الخمر وأنت في
كاس المظالم طافح مخمور
عطلت كاس سالف المدام تعففا
وعليك كاسات المظالم تدور
ماذا تقول إذا انقلبت إلى البلى
فردا وجاءك منكرو ونكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في
يَوْمَ الْحِسَابِ مَسْحُوبٌ مَجْرُورُ
وتفرقت عنك الجنود وأنت في
ضيق اللحد وموسد مقبور
وددت أنك ما وليت ولا ية
يَوْمَ مَا لِقَالِ الْإِنْسَامِ أَمِيرُ
وبقيت بعد العز رهن حفرة
في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عريانا حزيناً باكيئا
قلقا ومالك في الانعام مجير
أرضيت أن تحيي وقلبك دارس
عاني الخراب وجسمك المعمور

أرضيت أن يحظى سواك بقربه
أبدأ وأنت بمعده مهجور
مهمل لنفسك حجة تنجوها
يوم المعاد لعلك المعذور

فلما سمعها الملك نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب
في سائر البلاد، وقيل إن برهان الدين البلخي أنكر على نور الدين
استعانت في الحروب بأموال المكوس، قال: وكيف تنصرون وفي عسكركم
الطبول والخمور والزمور؟!

وقص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني
الشاعر أنه رأى في منامه أنه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره أن
يكتب مناشير بوضع المكوسات والضرائب عن البلاد، وقال: هذا تفسير
رؤياك، وكتب إلى الناس يستحل منهم عما أخذ منهم ويقول: إنما
صرفت في قتال أعدائكم من الكفرة، وكتب بذلك إلى سائر ممالكه
وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا من التجار لنور الدين، وكان
يقول في سجوده: اللهم أنا العشار المكاس.

الحادي عشر: في تملك ولده الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن
الملك العادل نور الدين محمود بن الاتابك زنكي بن آقسنقر.

ولما توفي نور الدين في التاريخ المذكور، ملك ولده المذكور دمشق وما
معهما بعد أن حلف له الأمراء والمقدمون بدمشق، وكان عمره إحدى
عشرة سنة، وأطاعه أهل الشام، وخطب له الناصر صلاح الدين بمصر
وضرب السكة باسمه، وأظهر له الطاعة، وتولى تربيته وتدبير دولته الأمير
شمس الدين محمد بن عبد الملك، المعروف بابن المقدم، وقال له كمال

الدين بن الشهرزوري ولمن معه من الامراء والمقدمين: قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر من أصحاب الشهيد، والمصلحة ان نشاورة في الذي تفعله ولا تخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا، ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا، لانه انفرد اليوم بملك مصر، فلم يوافق هذا القول أغراضهم، وخافوا ان يدخل صلاح الدين فيخرجهم، فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنيه بالملك، وأرسل دنائير مصر عليها اسمه، ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه.

ولما سار سيف الدين غازي بن قطب الدين، صاحب الموصل، إلى الجزيرة وملك البلاد الجزرية على ما ذكره أرسل صلاح الدين يعتب الملك الصالح حيث لم يعرفه قصد سيف الدين ابن عمه بلاده قبل أخذها ليحضر في خدمته ويكفه عنه، وكتب إلى الشهرزوري والأمراء يقول لهم: لو كان نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه ثقته إلى لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه ولاياته، ولو لم يعجل إليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربيته لولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها له، وأجازي كلا منكم بسوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده، وتمسك ابن المقدم وجماعة من الأمراء بالملك الصالح ولم يرسلوه إلى حلب خوفا أن يغلب عليهم شمس الدين علي ابن الداية، فإنه كان أكبر الامراء النورية، وإنما منعه من الاتصال بخدمته مرض لحقه، وكان هو وأخوه بحلب وأمرها إليهم وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده.

ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعو إلى حلب ليمتع به البلاد الجزرية من سيف الدين ابن عمه، فلم يمكنه الامراء الذين معه من الانتقال إلى حلب.

وفي المرأة: وكان الصالح لم يبلغ الحلم فأجلسوه مكان أبيه، وحضر القاضي كمال الدين ابن الشهرورزي وشمس الدين ابن المقدم، وجمال الدين ريجان، وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن العجمي أمير الأعمال، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا أن تكون أيديهم واحدة، وأن شمس الدين بن المقدم إليه مقدمة العساكر وتربية الملك الصالح، ووصل كتاب صلاح الدين، من انشاء الفاضل الى دمشق وفيه:

أدام الله أيام مولانا الملك الصالح، ورفع قدره، وأعظم أجر المملوك في مولانا السلطان الملك العادل وأجره، أصدر خدمته هذه يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة، وفيه أقيمت الخطابه بالاسم الكريم، وصرح بذكره في الموسم العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولاتأثيم، والله تعالى يخلد ملك مولانا الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه، ويديم النعمة عليه.

وذكر فصولا تتعلق بالتهنئة والتعزية:

وقال العماد: أخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح اسماعيل، وقد أبدى الحزن والعويل، وهو مجذوذ الذوائب مشقوق الجيب، حاسر حاف، مما فجأه وفجعه من الريب، وأجلسوه في الايوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تُشش، فاستوفى كل قلب حزنه فاستوحش، وبعد ان تحالفوا له أنشأ العماد كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تعزيتة بنور الدين ترجمته: «اسماعيل ابن محمود» وفيه: «أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل مذب الشام بل الاسلام، حافظ ثغوره وملاحظ أموره ومقدم الجهاد ومقتني فضيلته ومؤدي فريضته، ومحبي سنته وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريه، على أنه يعز ان يرى الزمان نظيره، وما هاهنا مايشغل السر ويقسم الفكر الا أمر الفرنج خذلهم

الله، وما كان اعتماد مولانا العادل وسكونه إليه الا لمثل هذا الحادث الجلل، والصرف الكارث المذهل، فقد ادخره لكفايات النوائب، وأعد له جسم ادواء العضلات اللواذب، وأمله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده وممكنه قوة لعضده، فما فقد رحمه الله الا صورة، والمعنى باق، والله تعالى حافظ لبيته واق، وهل غيره دام سموه من مؤازر، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر».

وفي تاريخ ابن كثير: لما مات نور الدين، وتولى ابنه المذكور، اختلف
الامراء، وحارت الآراء، وظهرت الشرور، وكثرت الخمور، وانتشرت
الفواحش، حتى ان ابن أخيه سيف الدين غازي ابن قطب الدين مودود
صاحب الموصل لما تحقق موت عمه، وكان محصوراً منه نادى مناديه
بالبلد بالمساحة في اللعب واللهو والشرب والطرب، ومع المنادي دف
وقدح ومزمار، وتحقق حينئذ قول الشاعر:

ألا فاسقنا سي خيراً
قل لي هـي الخمـر
ولا تسقنا سي سرا
وقد أمكن الجـهـر

وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين، وعزم الافرنج على قصد دمشق، فبرز إليهم الاتابك ابن المقدم فواقفهم عند بانياس، فضعف عن مقاومتهم فهادنهم مدة، ودفع إليهم أموالا جزيلة عجلها لهم، ولولا خوفهم من قدوم السلطان الملك الناصر صلاح الدين، صاحب الديار المصرية لما هادنوه، ولما بلغ ذلك صلاح الدين كتب الى الامراء، وخاصة الى ابن المقدم يلومهم على ما صنعوا من المهادنة ودفع الاموال الى الافرنج وهم أقل وأذل، وأنه عزم على قصد البلاد لحفظها من الافرنج، فردوا إليه كتابا فيه غلظة، وكلاما فيه بشاعة، فلم يلتفت

إليهم، ومن شدة خوفهم منه كتبوا إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل ليملكوه عليهم ليدفعوا به الملك الناصر صلاح الدين، فلم يفعل لانه خاف أن تكون مكيدة منهم له، وذلك أنه كان قد هرب منه الطواشي سعد الدولة كمشتكين الذي كان قد جعله عنده نور الدين عيناً عليه، وحافظاً له من تعاطي مالا يليق عليه، فلما سمع الخادم بموت استاذة خاف أن يمسكه، فهرب سرّاً، فحين تحقق غازي موت عمه بعث في طلب الخادم ففاته، فاستحوذ على حواصله، ودخل سعد الدولة حلب، ثم سار إلى دمشق فاتفق مع الأمراء على أن يأخذ ابن استاذة الملك الصالح اسماعيل إلى حلب فيريه هنالك، وتكون دمشق مسلمة إلى الاتابك شمس الدين ابن المقدم والقلعة إلى الطواشي جمال الدين ريجان، فسار معه الأمراء والأكابر من دمشق وذلك في الثالث والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وحين وصلوا إلى حلب جلس الصبي على سرير مملكته، واحتاطوا على بني الداية شمس الدين وعلى أخيه مجد الدين الذي كان رضيع نور الدين وأخوته الثلاثة، وقد كان شمس الدين ابن الداية يظن أن يسلم إليه ابن نور الدين ليربيه، لانه أحق الناس بذلك، فخبّوا ظنه وسجنوه وأخوه في الحب، فكتب صلاح الدين إلى الأمراء يلومهم على ما فعلوا من نقل الولد إلى حلب، ومن سجن لبني الداية، وقد كانوا من خيار الأمراء، ورؤوس الأمراء الأكابر، ولم ماسلموا الولد إلى مجد الدين بن الداية الذي كان أحظى الناس عند نور الدين.

فكتبوا إليه يسيئون الادب عليه، وكل ذلك مما يزيده حنقاً عليهم، ويحرضه على القدوم بجيشه إليهم، ولكنه في هذا الوقت في شغل شاغل بما دهم بلاده من الأمر الهائل، كما سنذكره إن شاء الله تعالى في السنة الآتية، إنه على ذلك قدير.

ذكر الأمور المزعجة:

ومنها أن ملك الروم خرج من القسطنطينية، وقصد بلاد قليج أرسلان، فجرت فيها حرب استظهر فيها المسلمون، فلما رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده، وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كبيرة.

ومنها أن الفرنج حاصروا بانياس ثم عادوا عنها، وقد قلنا إن هذا كان بعد موت نور الدين، وأن شمس الدين محمد بن عبد الملك خرج من دمشق، وراسل الافرنج وبذل لهم، فعادوا.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السبعين بعد الخمسةائة:

ذكر تملك صلاح الدين دمشق وأخذها من الملك الصالح بن نور الدين:

ولما مات نور الدين في التاريخ الذي ذكرناه، وتولى عوضه ولده اسماعيل، وطمعت الفرنج في بلاد الشام، واختلفت آراء أمراء الشام، وعزم السلطان صلاح الدين للتوجه إلى الشام لأخذها وحفظها من الأفرنج، ولكن عرض عليه أمران: الأول مجيء الأفرنج إلى بلاد مصر، والثاني مخالفة الكنز المقدم بأسوان، فلنذكر الأمرين أولاً، ثم نذكر أخذ صلاح الدين دمشق.

أما الأمر الأول، فقد قال ابن كثير: استهلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على عزم الدخول إلى الشام ليحفظه من أيدي الأفرنج المخذولين، ولكن قد دهمه أمر شغله عنه، وذلك أن الفرنج قدموا إلى ساحل البلاد المصرية في اسطول لم يسمع بمثله في كثرة مراكبه ومافيه آلات الحصار، وكثرة الرجال والمقاتلة من جملة ذلك مائتا شيني في كل منها مائة وخمسون مقاتلاً، وأربعائة قطعة أخرى، وكان قدومهم من صقلية إلى ظاهر اسكندرية قبل رأس السنة بأربعة أيام، فنصبوا المنجنيقات والدبابات حول البلد، وبرز إليهم أهلها فقاتلوهم دونها قتالاً شديداً، واستمر القتال أياماً، وقتل من كلا الفريقين خلق كثير، ثم اتفق أهل البلد على تحريق ما نصبوه من المنجنيقات والدبابات، ففعلوا ذلك، فأضعف ذلك قلوب الأفرنج وفت في أعضادهم، ثم كبسهم المسلمون في منازلهم فقتلوا من أحبوا وأرادوا وغنموا ما شاءوا واختاروا، وانهزم الكفار في كل وجه ولم يكن لهم ملجأ إلا

البحر والقتل، أو الأسر، واستحوذ المسلمون على أموالهم وأثقالهم وحيولهم وما ضربوه من الخيام لنزولهم، وبالجملة قتلوا خلقاً من الرجال وغنموا شيئاً كثيراً من الأموال، وركب من بقي منهم في الاسطول راجعين إلى بلادهم خائبين لعنهم الله.

وفي تاريخ بريس: وفي هذه السنة قصد الافرنج ثغر الاسكندرية وجاءوا في مائتي شيني وطريدة، وأمد الملك الناصر صلاح الدين أهل الثغر بالعسكر وتحرك ليتوجه إليهم، فألقى الله في قلوبهم الرعب فعادوا خائبين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلوا قتالا شديداً.

وفي تاريخ الدولتين: أما وصول الاسطول إلى اسكندرية فكان يوم الاحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين، وانهمز في أول المحرم سنة سبعين، وأرسل صلاح الدين كتاباً إلى بعض الأمراء بالشام وفيه وصول أول الاسطول وقت الظهر، ولم يزل واصلاً إلى وقت العصر، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر، لا على خفاء من الخبر، واستنزلوا حيولهم من الطرائد ورجالهم من المراكب، فكانت الخيل ألفين وخمسمائة فارس، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل مابين فارس وراجل، وكانت عدة الطرائد مائتا شيني، في كل شيني مائة وخمسون راجلاً، وكانت عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الاخشاب الكبار وغيرها ست سفن، وكانت عدة المراكب الحمالة برسم الازواد للرجال أربعين مركباً، وفيها من الرجال المتفرقين وغللمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنقية مايتم خمسين ألف راجل، ولما تكاملوا نازلين على البر حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور، وفقد من أهل الثغر في وقت الحملة مايناهز سبعة أنفس، واستشهد محمود بن البصار بسهم جرح، وجذفت مراكب الافرنج داخله

الى الميناء، وكان به مراكب مقاتلة، ومراكب مسافرة فسبقهم المسلمون فحسفوها وغرقوها وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها، واتصل القتال إلى المساء فضربوا خيامهم بالبر، وكانت عدتهم ثلاثمائة خيمة، فلما أصبحوا زاحفوا وضايقوا وحاصروا ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها، وثلاثة مجانيق كباراً تضرب بحجارة سوداء اصحبوها معهم من صقلية، والدبابات تشبه الابراج في جفاء أخشابها وارتفاعها وكثرة مقاتلتها واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السور، وألحوا في القتال عامة النهار المذكور، وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو على جناح الطائر، فاستنهض السلطان العساكر إلى الثغرين اسكندرية ودمياط، وأما اسكندرية فإيهم فتحوا على غفلة وخرج منها من كان بها من الأمراء، فأحرقوا الدبابات المنصوبة، وأنزل الله النصر على المسلمين والخذلان على الكفار، واتصل القتال الى العصر من يوم الاربعاء، وانهزم الافرنج، واستمر القتل والجرح فيهم، ولم يسلم منهم الا من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه، وتقحم المسلمون في البحر على بعض المراكب فحسفوها وأتلفوها، فولت بقية المراكب هاربة، وبقي العدو بين قتل وغرق وأسر، واحتفى ثلاثمائة فارس في رأس تل فأخذت خيولهم ثم قتلوا وأسروا، وأقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس».

وذكر ابن شداد أن نزول هذا العدو كان في شهر صفر، وكانوا ثلاثين ألفاً في ستائة قطعة مابين شيني وطراده وبطسة وغير ذلك.

وأما الأمر الثاني: فهو نوبة الكنز.

وقال بيبرس في تاريخه: وفي هذه السنة خالف الكنز بأسوان، وهو مقدم من المصريين كان قد انتزع إلى أسوان، فأقام بها، ولم يزل يدبر أمره، ويجمع السودان عليه، ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة المصرية ويقطع خطبة الناصر صلاح الدين، ويخطب لداود بن العاضد،

فاجتمع إليه جمع وافر من السودان، وقصد قوص وأعمالها، فأنتهى خبره إلى الملك الناصر، فجرد عسكرياً إليه، وقدم عليه أخاه الملك العادل وتوجه صحبته أبو الهيجاء السمين، فسار إلى الكنز وقد حشد جمعا كثيرا من السودان والرعية وعربان البلاد، فالتقوا وقتلوا الكنز، وأبادوا جموعه، واطمأن الصعيد، وعاد الملك العادل وسكن القصر بالقاهرة، ولقب من ذلك الحين بالملك العادل، والكنز المذكور من قبيلة ربيعة، وكان مسكنهم بجزيرة العرب ومستقرهم منها باليامة، وانتقلوا إلى مصر من أيام المتوكل العباسي، فسكنوا بيوت الشعر في صحارى هذه الأعمال، وكانت البجاة تشن الغارات في كل وقت، فمنعواهم من ذلك، ثم تزوجوا عندهم، وظفروا بمعدن الذهب بالعلاقي، فتمولوا.

وفي تاريخ ابن كثير: وما عوق الملك الناصر صلاح الدين عن الشام رجل يعرف بالكنز، وسماه بعضهم عباس بن شادي، وكان من مقدمي الديار المصرية، ومن الدولة الفاطمية، وكان قد انتزح إلى أسوان وجمع عليه خلقاً من الرعاع من الحاضرة والعربان، وزعم لهم أنه سيعيد الدولة، ويدحض الدولة التركية، ثم ذكر قريباً مما ذكرناه.

وقال ابن أبي طي: خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شادي، وثار في بلاد قوص ونهبها وخربها وأخذ أموال الناس، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكان السلطان استنابه بمصر، فجمع له العساكر، وأوقع به وبدد شمله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان، وكان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

وأما توجه السلطان صلاح الدين إلى الشام فقد كان في هذه السنة، فخرج إلى البركة في مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بلبيس في ثالث عشر ربيع الاول، وكان عنده رسل شمس الدين

صاحب بصرى صديق ابن جاولي، وشمس الدين ابن المقدم، ثم سار الى إيلة، ثم أناخ على بصرى فاستقبله صاحب بصرى، ولم يزل في خدمته الى الكسوة، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين آخر شهر ربيع الاول، وسار في عسكره حتى دخل دمشق، ودخل إلى دار العقيقي، وكانت مسكن أبيه، وكان في قلعة دمشق جمال الدين ريجان الخادم، فاستماله صلاح الدين حتى ملك القلعة أيضاً، ونزل في القلعة سيف الاسلام أخو السلطان صلاح الدين، وأظهر السلطان لأهل دمشق أنه إنما جاء لتربية الملك الصالح بن نور الدين، وحفظ ماله من المصالح، وجاء إليه أعيان البلاد منهم: القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، فأكرمه السلطان وبالغ في اكرامه والامراء والاجناد والأتراك والاكراد والعربان، ثم أرسل السلطان الكتب الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر، وفي بعض كتبه:

«وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول».

وفيه: «ثم لقينا الأجل ناصر الدين بن المولى أسد الدين، والأمير سعد الدين بن أنر يوم السبت السابع والعشرين منه، ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب، واستقبلنا هناك الأجناد الدمشقية، ولما دخلنا دمشق أمرنا بالنداء باطابة النفوس وإزالة المكوس».

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة خرج الملك الناصر صلاح الدين إلى دمشق، واستناب عنه الملك العادل أخاه بالديار المصرية، وكان السبب في ذلك أن الملك الصالح بن نور الدين كتب إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن ممدود صاحب الموصل، وإلى أخيه عماد الدين زنكي صاحب سنجار، بأن يحضرا إليه بعساكرهما ليجتمعوا جميعاً على قصد صلاح الدين، وأخذ الديار المصرية منه.

فأما أخوه عماد الدين زنكي فإنه امتنع منه لأن صلاح الدين كان قد كاتبه وأطمعه في ملك والده بحكم أنه الكبير، فحمله الطمع على الامتناع على أخيه، فلما رأى أخوه امتناعه سار إليه إلى سنجار وحاصره بها، وامتنع عماد الدين، وجد في حفظ البلد والذب عنها، فدام الحصار عليه فيينا هو يحاصرها أتاه الخبر بانهازم عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين، لأنه كان عند مسيره إلى سنجار قد رتبته مع عسكر بدمشق، وصحبته أمير كبير يسمى عز الدين محمود، فلما وصل صلاح الدين إلى دمشق أخذها وانهمز العسكر الذي بها، فراسل الملك الصالح أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده، ورحل إلى الموصل إلى سيف الدين ابن عمه ليستجده على صلاح الدين، فسار بنفسه، وسار صلاح الدين من دمشق إلى حمص، واستخلف عليها أخاه سيف الاسلام طغتكين، وقاتل أهل حمص يوماً واحداً فملكها وامتنعت القلعة عليه، فسار عنها إلى حماه وبها عز الدين جورديك، وهومن ممالك نور الدين فامتنع من التسليم، فسير إليه صلاح الدين يذكر أنه في طاعة الملك الصالح، وأنه ما خرج إلا لحفظ البلاد من الفرنج، فاستحلفه على ذلك، وسلم إليه البلد، فلما تسلمها سار منها إلى حلب فحاصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين، واتفق وصول سيف الدين غازي من الموصل منجداً له، وتقدمت عساكره لقتال صلاح الدين، فبذل له صلاح الدين تسليم حمص وحماة، وأن يقر بيده مدينة دمشق ويكون فيها نائباً من جهة الملك الصالح، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: لا بد من تسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام وعوده إلى مصر، أو القتال، وكان صلاح الدين في أثناء المراسلة يجمع عساكره ويتأهب للقاءه، فلما امتنع سيف الدين من اجابته لما بذل، سار بعسكره فالتقى هو وعسكر سيف الدين غازي على قرون حماه، فهزمهم وتبعهم حتى حازوا معسكرهم، وغنم منهم غنائم كثيرة ودواباً وسلاحاً، وعاد العسكر السيفي منهزماً إلى حلب فتبعهم صلاح الدين إليها، ونزل عليها محاصراً لها، فراسلوه في

الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم من بلاد حلب معاً، فأجابهم وانتظم الصلح، ورحل عن حلب في شوال منها، وقطع خطبة الملك الصالح من بلاده وأزال اسمه عن السكة.

وفي تاريخ النويري: وفي هذه السنة أرسل شمس الدين بن الداية المقيم بحلب كمشتكين الطواشي يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق الى حلب ليكون مقامه بها، فسار الصالح إليه، ولما استقر بحلب تمكن كمشتكين وقبض على شمس الدين ابن الداية وأخوته، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وأخوته، وهورئيس حلب، واستبد كمشتكين بتدبير الملك الصالح، فخاف ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه، فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس، ووصل إلى دمشق، واستقر فيها، ولم يتطح فيها عنزان، ولا اختلف سيفان، وذلك أن نائبا شمس الدين ابن المقدم كان قد كتب إليه أولاً، فأغلظ ورمى الكتاب، فلما رأى أمره متوجهاً جعل يكتابه ويستحثه على القدوم، ويعده بتسليم البلد، فلما رأى الجدل لم يمكنه المخالفة، فسلمه البلد، فنزل السلطان أولاً في دار والده، وهي دار العقيقي، وهي التي بنيت مدرسة للملك الظاهر بيبرس رحمه الله، ولما ثبت أمره بها استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين، وأخذ ما في القلعة من الأموال، ثم سار إلى حصص مستهل جمادى الأولى، ونزل عليها في حادي عشر جمادى الأولى، وملك المدينة وعصت عليه القلعة، فترك عليها من يضيق عليها، ورحل إلى حماه، وملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان بقلعتها عز الدين جرديك أحد المماليك النورية، فامتنع، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ بلاد الملك الصالح بن نور الدين عليه، وإنما هو نائبه، وقصد جرديك من صلاح الدين أن يكون سفيره بينه وبين الحلبيين، فأجابه إلى ذلك، فسار جرديك إلى حلب للرسالة، واستخلف في قلعة حماه أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب

قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم بذلك أخوه سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين، فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب، فنازلها على جبل جوشن وحصرها، فاجتمع أهل حلب، وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب، فأرسل كمشتكين إلى سنان مقدم الاسماعيلية أموالاً عظيمة ليقتلوا صلاح الدين، ووثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب إلى مستهل رجب، ثم رحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص، وذلك أن أهل حلب راسلوا القومص صاحب طرابلس، ووعدوا له بأموال جزيلة إن هو رحل عنهم السلطان صلاح الدين، وكان هذا اللعين قد أسره نور الدين ومعتقلاً مدة عشر سنين، ثم فاداه على مائة ألف دينار، وألف أسير من أسارى المسلمين، وكان لا ينسى ذلك لنور الدين، فركب القومص لعنه الله من مدينة طرابلس في جيشه، فلم يتجاسر على مقابلة صلاح الدين، بل قصد حمص ليأخذها بغتة، وركب إليه السلطان، وقد أرسل سرية إلى بلده، فقتلوا منها وأسروا وغنموا، فلما اقترب السلطان منه نكص على عقبه، وكر راجعاً إلى بلده، وتراءى أنه قد أجاب إلى ماسألوها، فوصل صلاح الدين إلى حماة، وسار إلى حمص، فرحل الفرنج عنها، وحصر قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان المعظم، ثم سار إلى بعلبك فملكها، ولما استقر صلاح الدين في هذه البلاد أرسل الملك الصالح ابن نور الدين إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود ابن زنكي، وجعل مقدم جيشه أكبر أمراءه وهو عز الدين محمود، ولقبه سلفندار، ووصلوا إلى حلب، وانضم إليه عسكر حلب، وساروا إلى صلاح الدين، وأرسل صلاح الدين ييذل حمص وحماه وأن تبقى بيده دمشق، ويكون فيها نائباً للملك الصالح بن نور الدين، وانما فعل ذلك صلاح الدين لقلّة الجيش الذي معه بالنسبة لجيش هؤلاء، فامتنع من المصالحة الخادم كمشتكين إلا أن يجعل لهم الرحبة التي بيد ابن عمه

ناصر الدين ابن أسد الدين شيركوه، فقال: ليس لي ذلك ولا أقدر عليه، فأبوا الصلح وأقدموا على القتال، فجعل صلاح الدين جيشه كردوساً واحداً، وذلك يوم الأحد التاسع عشر من شهر رمضان عند قرون حماء، فصبر صبراً عظيماً، وجاءه في أثناء الحال ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه ومعه أخوه فرخشاه في طائفة من الجيش، وقد ترجح دسته عليهم وخلص رعبه إليهم، فانهزموا مدبرين وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم، فأسر منهم من أسر من رؤسائهم، ونادى ان لا يتبع مدبر، ولا يذف على جريح، ثم أطلق من وقع في أسره، وسار على الفور حتى نازل حلب، فانعكس عليهم الحال، فبالامس كان يطلب منهم المصالحة، واليوم هم طلبوا منه أن يكف عنهم ويسير عنهم على أن له المعرة وكفر طاب وبارين زيادة على ما بيده من أراضي حماة وحمص وبلبك مع دمشق، فقبل منهم وكف عنهم وحلف أن لا يغزو بعدها الملك الصالح، وأن يدعو له على سائر منابر بلاده وممالكه، وشفع في بني الداية أخوة مجد الدين أن يخرجوا من السجن، ففعلوا ذلك، ثم رجع مؤيداً منصوراً، فلما وصل الى حماة وصل إليه رسل الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه الخلع السنية والتشريفات العباسية، والاعلام السود وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام، وأفيض الخلع على أهله وأقاربه وأصحابه وأصهاره وأعوانه وانصاره، وكان يوماً مشهوداً، واستناب على حماء ابن خاله وصهره ابن الأمير شهاب الدين محمود، ثم سار الى حمص فاطلقها لابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، كما كانت لأبيه من قبل، ثم الى بعلبك، ثم الى البقاع، ثم الى دمشق في ذي القعدة من هذه السنة.

وفي المرأة : لما دخل السلطان صلاح الدين دمشق في مجيئه من مصر التقاه أهل دمشق بأسرهم، ونشروا عليه الدراهم والدنانير، وأحسن صلاح الدين إلى ابن المقدم والقاضي ابن الشهرزوري، ومشى إلى دار كمال الدين فانزعج وخرج إلى لقائه، ودخل صلاح الدين فجلس

وباسطه وقال: يا كمال الدين لما كنت في الشحنة قد كانت بيننا هنات ومشاحنات، وكان كمال الدين يكرهه وكان كل واحد منهما ينقض على الآخر أحكامه، فقال له صلاح الدين: مامشيت إليك إلا لأزيل ما في خاطرك من الوهم وأعرفك أن ما في قلبي لك فاتكره، فطب نفساً وقر عيناً، فالامر أمرك، والبلد بلدك.

وأكثر الشعراء في أخذ صلاح الدين دمشق، تم كتب إلى الملك الصالح كتاباً تواضع فيه له، وخاطبه بمولانا ابن مولانا، ويقول: إنما جئت من مصر خدمة لأؤدي ما يجب من حقوق المرحوم، فلا تسمع ممن حولك ففسد أحوالك وتختل أمورك وما قصدي إلا جمع كلمة الاسلام على الافرنج، فعرض كتابه على أرباب دولته وفيهم خالد بن محمد بن القيسراني وغلمان أبيه وابن العجمي، فأشاروا عليه بأن يكاتبه بالغلظة، فكتب إليه ينكر عليه وينسبه إلى كفر النعمة وجحد احسان والده، ووعدته وتهده، وبعث بالكتاب يتال بن حسان صاحب منبج، فأغلظ لصلاح الدين الجواب وقال: السيوف التي ملكتك مصر هي التي تردك، وأشار إلى سيفه، فغضب صلاح الدين وقال: والله لولا أنك رسول لضربت عنقك، والله ماجئت إلى هاهنا شرها ولا طمعاً في الدنيا وفي مصر كفاية، وإنما جئت لاستنقذ هذا الصبي من يد مثلك وأمثالك، فأنتم سبب زوال دولته، ثم طرده بغير جواب، فعاد إلى حلب، واستتاب صلاح الدين بدمشق أخاه سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين، وسار إلى حمص فأخذها، وفتح حماه، وسار إلى حلب فاستعانوا عليه بالاسماعيلية وأعطوهم مالاً وضياعاً، فأرسلوا إليه جماعة من فتاكهم، ورآهم ناصر الدين خمار تكين صاحب أبي قبيس، فعرفهم لانه كان مثاغراً لهم، وأنكر عليهم مجيئهم، وسبق إلى خيمة صلاح الدين ليخبره فأدركوه على باب الخيمة، ثم أرادوا الهجوم على صلاح الدين، وكان أمير جندار سيف الدين طغرل هناك، فجذب سيفه وقتل واحداً منهم، واجتمع الغلمان على الباقيين فقتلوهم، ورحل صلاح الدين عن حلب في

أول رجب وجاء إلى حمص، ثم نازل بعلبك فأخذها في رمضان من الخادم يمن الريجاني، ووصل عسكر الموصل إلى حلب وانضاف إليهم عسكر حلب، ونزلوا على تل السلطان، فساق عليهم صلاح الدين وبغتهم، وكان مقدمهم عز الدين مسعود أخو سيف الدين غازي، فكسرهم كسرة عظيمة وانهزموا إلى حلب، وغنم أثقالهم، وأسر أبطالهم، وجاء فحصر حلب وهذه هي المرة الثانية من حصار حلب، والمرة الأولى من كسرة المواصلات، ورجع صلاح الدين فتنزل بارين، وأخذها من ابن الزعفراني، وكان من أكابر أمراء نور الدين، ولقبه فخر الدين واسمه مسعود، وأعطى مدينة حماة لخاله وقيل لابن خاله وصهره ابن شهاب الدين محمود، وأعطى حمص لناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه.

وقال ابن أبي طي: بلغ السلطان أن ابن المقدم نقض عهد السلطان الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين من الموصل، واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه، وقيل أن ابن المقدم كتب إلى السلطان ودعاه إلى الخروج، وقيل إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام وشغل بعضهم ببعض.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بقعتها، نشر علم العدل والاحسان، وعفى آثار الظلم والعدوان، وأبطل ماكان الولاية استجدوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمؤن والضرائب المحرمات^(١٩).

وقال صاحب الروضتين: وكان قد كتاب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها:

تهن أطول الملوك يوماً
في بسط عدل وسطوة وندا

لاستقل الذي صنعت فقد
قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست أرض العدا وأفنيت من
أبطالهم ما يجاوز العدا
ومار أين اغزا الفرنج من الـ
مملوك في عقر دارهم أحدا
فسر إلى الشام فالملائكة
الابرار يلقاك جمعهم مددا
فهو فقير إليك يا أمل أن
يصلح بالعدل منه ما فسد
والله يعطيك فيه عاقبة النصر
كما في كتابه وعدا
فما حباك الوري وأهملك العدل
وأعطاك ما ملكت سدى

ومدح وحيش الاسدي صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أولها
هو قوله:

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا
فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد
أدنى فريسة الايام إن وثبا
رأيت جلق بعز لا نظير له
فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها
وأرفع الخلق من أوطانها هربا
أحييها مثلما أحييت مصر فقد
أعدت من عدلها ما كان قد ذهب
هذا الذي نصر الاسلام فاتضح
سبله وأهان الكفر والصلبا

ويوم شاوور والايان قد هزمت
جيوشه كان فيه الجحفل اللجبا
ويوم دمياط والاسكندرية قد
أصارهم مثلاً في الارض قد ضربا
والشام لو لم يدارك أهله اندرست
آثاره وعفت آياته حقباً

ولما نزل السلطان صلاح الدين على حلب أشير على ابن نور الدين
أن يجمع أهل حلب في الميدان، ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بلسانه
أنهم الوزر والملاجأ، فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب
العراق، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس، فنزل الصالح من باب
الدرجة، وصعد من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال
لهم: يا أهل حلب أنا ربيكم ونزيلكم، واللاجئ إليكم، كبيركم عندي
بمنزلة الاب وشابكم عندي بمنزل الاخ، وصغيركم عندي حل محل
الولد، وخنقته العبرة، وسبقته الدمعة وعلا نسيجه، فافتن الناس،
وصاحوا صيحة واحدة، ورموا بعمائمهم، وضجوا بالبكاء، وقالوا: نحن
عبيدك وعبيد أهلك نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك، وأقبلوا
على الدعاء له والترحم على أبيه، وكانوا قد اشتروا على الملك الصالح
أن يعيد إليهم شرقية الجامع يصلون فيها على عادتهم القديمة، وأن
يجهروا بحمي على خير العمل، والاذان والتذكير في الاسواق وقدام الجنائز
بأسماء الائمة الاثني عشر، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات، وأن
تكون عقود الانكحة الى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة
الحسيني، وأن تكون العصية مرتفعة، وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان
أبطله نور الدين رحمه الله، فأجيبوا إلى ذلك.

وقال ابن أبي طي: فأذن المؤذنون في منارة الجامع وغيره بحمي على خير
العمل، وصلّى أبي في الشرقية مسبلاً، وصلّى وجوه الحليين خلفه، وذكروا

في الأسواق، وقدام الجنائز بأسماء الائمة الاثني عشر، وصلوا على الاموات خمس تكبيرات، وأذن للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الامامية إليه وفعلوا جميع ماوقعت الايمان عليه.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن السلطان صلاح الدين استخدم في هذه السنة العماد الكاتب، وسببه أنه التقى القاضي الفاضل على حمص ومدحه بأبيات من الشعر، فدخل الفاضل على صلاح الدين وقال له: غدا تأتيك تراجم الاعاجم ومايحلها مثل العماد، فقال: مالي عنك مندوحة، أنت كاتبى ووزيرى، وقد رأيت على وجهك البركة، فإذا اسكتبت غيرك تحدث الناس، فقال الفاضل: هذا يحل التراجم، وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك فإذا غبت قام مقامي فاستكتبه.

وقال العماد: وأول ماأهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص في شعبان من هذه السنة بقصيدة منها قوله:
عائنت طودسكينة ورأيت شمـ
س فضيلة ووردت بحر فواضل
ورأيت سحبان البلاغة ساحبا
بيانه ذيل الفخار كواثل
أبصرت قسافي الفصاحة معجزاً
فعرفت أنى في فكاهة باقل
حلف الحصافة والفصاحة والسما
حة والحماسة والتقوى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه
طامي العباب وماله من ساحل
وجميع ما في الارض سبعة أبحر
ويحوره تسمى بعشر أنامل

في كفه قلم يعجل جريه
ما كان من أجل ورزق آجل

الآيات:

ومنها أن أخا السلطان المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وصل
من اليمن الى دمشق وأقام بها مدة، ثم حضر الى الديار المصرية.

ومنها أن في غيبة صلاح الدين بالشام اجتمعت بالقاهرة طائفة من
جند الارمن والاسماعيلية وجند المصريين، وغلماں العادل أبي بكر، ونادوا
بشعار أبي طاهر بن العاضد، فلما سمع العادل بذلك أوقع بهم وقتل
منهم جماعة، واعتقل جماعة، ونفى آخرين، وكان الذي حملهم على ذلك
الشريف ابن هانىء...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان
صلاح الدين مقيم بمرج الصفر، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة،
فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم السلطان أموراً فالتزموها، وكان
الشام ذلك العام جذباً، فأذن السلطان للعساكر المصرية بالرحيل إلى
بلادهم، وإذا استغلوا خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل، واعتمد على
العماد فيما كان بصدد، وواظب السلطان على الجلوس في دار العدل،
وعلى الصيد ومدحه العمد بقصيدة منها:

سواك لسهم العلى لن يرشاً

فنسأل رب العلى أن تعيشاً

من الناس بالبر صدت الكرام

وبالباس في البر صدت الوحوشا

وكم سرت من مصر نحو العريش
فهدمت للمشركين العروشاً
سراياك تبعث قدامها
من الرعب نحو الاعادي جيوشاً
ويوم حماة تركت العداة
كما طيرت بالفلأالريح ريشاً

ذكر الحرب بين السلطان صلاح الدين وبين غازي بن مودود صاحب الموصل

وأصل ذلك أن غازي هذا الذي هو ابن أخي نور الدين كتب إلى جماعة الحلبيين يلومهم على ماوقع بينهم وبين السلطان صلاح الدين من المصالحة، وأرسل رسولاً إلى صلاح الدين، ودفع له كتابين: أحدهما إلى صلاح الدين ليأخذ منه عهداً للمواصلة ويكشف ما عنده، والكتاب الثاني إلى الحلبيين يلومهم على الصلح ويخبرهم أنه واصل بعساكر الشرق، ولما دخل الرسول على صلاح الدين غلط ودفع كتاب الحلبيين إليه، وذلك لسعادة صلاح الدين، فتأمل له صلاح الدين وعلم أن الرسول غلط، فلم يقل له شيئاً، وفهم الرسول، فقام وخرج من عنده ولم يمكنه الاستدراك، وكتب صلاح الدين إلى مصر إلى أخيه الملك العادل أبي بكر بتجهيز العساكر المصرية إلى الشام بسرعة، وجمع غازي العساكر من الجزيرة، وكان أخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار عاصياً عليه، ماثلاً لصلاح الدين، فصالحه، وكان أخوه عز الدين مسعود وعسكره انهمزوا في العام الماضي، لما التقوا بصلاح الدين - كما ذكرناه - فصالح غازي فاجتمع معه عسكر كثير، عدته ستة آلاف فارس، وسار إلى نصيبين في ربيع الاول، وأقام بها حتى انقضى الشتاء، فضجر العسكر وفنيت نفقاتهم، فصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر، ثم سار إلى حلب والتقاء الملك الصالح بن نور الدين، فاعتنقه

سيف الدين غازي، وبكى ونزل بظاهر حلب بعين المباركة، وصعد القلعة جريدة، وكان أمراء حلب يركبون كل يوم الى خدمته.

وفي تاريخ النويري: وكان غازي في عشرين ألف مقاتل، ثم رحل إلى تل السلطان، ومعه هؤلاء العساكر: عسكر الشرق، وديار بكر، والحلييون، وبلغ صلاح الدين وهو بدمشق، ولم يكن عنده سوى ستة آلاف فارس، كذا في المرأة.

وفي تاريخ النويري: وسار صلاح الدين نحوهم ومعه ألف فارس، ولكن الجيوش قد خرجت من الديار المصرية وفي جحافل كالجبال ووصل الى حماة، ونزل بها، وترك أثقاله بها، وساق الى جباب التركمان، وجاءه رسول الحليين بأنهم يخوفونه بأسهم، ويأمرونه بالرجوع إلى أن قال رسولهم: فوافيته وهو في خيمة صغيرة، وهو على بساط، وتحت سجادة، وبين يديه مصحف وهو مستقبل القبلة، وإلى جانبه زرديته وسيفه بين يديه، وقوسه وتركاشه معلق في عمود الخيمة، قال: فلما رأيته وقع في خاطري أنه المنصور، لأنني فارقت سيف الدين غازي والأمراء وهم على طنافس الحرير والخمور تروق وليس في خيامهم خيمة الا وفيها أنواع المحرمات، فأدبت إليه الرسالة، وجاء وقت الظهر فضج العسكر لصوت الاذان، وفي كل خيمة إمام، فقال لي: الحق بأصحابك وقل لهم يستعدون للقائي فإني عند طلوع الشمس نازل عليهم ﴿يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ [الاعراف ٨٧].

قال: ففارقته وأنا على بصيرة من نصرته وخذلانهم، وسقت عامة الليل فوافيتهم وقت الفجر وهم سكارى، فطلبت سيف الدين غازي فقبل لي: هو نائم، قال: فوالله ما انبسطت الشمس الا واعلام صلاح الدين قد أقبلت والكوسات تخفق وأصحابنا نيام، فقاموا مسرعين، وكان يوم الخميس العاشر من شوال، وكانت ملاقاتهم على تل السلطان، وكان

على ميمنة السلطان صلاح الدين ابن خاله شهاب الدين محمود، وعلى
ميسرته صاحب بصرى، وهو في القلب، وكان في ميمنة المواسلة مظفر
الدين بن زين الدين صاحب إربل، وعلى ميسرتهم الحلييون وسيف
الدين غازي في القلب.

وفي المرأة: وكان صلاح الدين قد وقف على تل عال فحمل ابن زين
الدين فطحن ميسرة صلاح الدين، وحمل الحلييون على ميمنته فتعتوهها،
ونزل صلاح الدين من التل، ورأى أن يباشر الامر بنفسه، وإلا اختل
الامر، فساق عليهم، واتفق وصول العساكر المصرية في تلك الساعة مع
تقي الدين عمر، وعز الدين فرخشاه، وناصر الدين محمد بن أسد الدين
شيركوه، فهال ذلك الحليين من دق الكوسات وحسن الاطلاق،
والعدد الوفرة، والخيال العربية، فانخذلوا وولوا منهزمين.

وفي تاريخ النويري: وحمل السلطان صلاح الدين بنفسه الكريمة،
فكانت باذن الله الهزيمة، فقتلوا من الحليين والمواسلة خلقاً، وأخذت
مضارب سيف الدين غازي وحواسله وأسر جماعة من رؤوسهم،
فأطلقهم السلطان بعد أن خلع عليهم، وقد كانوا استعانوا بجماعة من
الافرنج في حال القتال، وليس هذا من صنع الصناديد.

وفي تاريخ بيبرس: وكان غازي قد سبق، ووصل صلاح الدين وقت
العصر، وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا، فألقوا نفوسهم على الارض ليس
فيهم حركة، وأشار على غازي جماعة من أصحابه بقتالهم في تلك
الساعة، فتأخر إلى الغد، فلما التقوا من الغد انكسر عسكر سيف الدين
ورجع إلى حلب، ولم يقتل من الفريقين مع كثرتهم سوى رجل واحد،
وترك سيف الدين أخاه عز الدين مسعود بحلب، وسار إلى الموصل
وهو يظن أنه لا ينجو، وأن صلاح الدين يعبر الفرات إليه ويقصده
بالموصل، فاستشار وزيره في مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة الحميدية

فمنعه من ذلك، وثبت قلبه، وعزل عز الدين عن إمارة العسكر، واستعمل مكانه مجاهد الدين قاياز.

وفي تاريخ النويري وغيره: ووجد السلطان صلاح الدين في نجيم غازي شيئاً من الاقفاص التي فيها الطيور المطربة وذلك في مجلس شرابه، وكيف ينصر من كان هذا مسلكه، ومذهبه، فأمر صلاح الدين بردها عليه وقال للرسول: قل له: اشتغالك بهذه الطيور أحب إليك من الوقوع فيما رأيت من المحذور، وغنم السلطان من أموالهم شيئاً كثيراً، ففرقه على أصحابه وأنعم بخيمة الملك سيف الدين غازي على ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، ورد وطاقه من الجواري والمغنيات، وقد كان معه أكثر من مائة مغنية، ورد الاقفاص وآلات اللعب الى حلب، وقال: قولوا له: هذه أحب إليك من الحرب، ووجد عسكر المواصلة كالحانة من كثرة الخمر والبرابط والملاهي.

وفي المرأة: ولما انهزم غازي ومن معه ساق صلاح الدين وراءهم وأسر أمراءهم، ونجا غازي بنفسه، وعاد صلاح الدين إلى خيامهم، فوجد سراق سيف الدين غازي مفروشا بالرياحين والمغاني جلوس في انتظاره، والخمر تروق، ومطابخه بقدرها، وفيه أقفاص الطيور فيها أنواع من القماري والبلابل والهزارات، ثم فرق صلاح الدين الخزائن والخيول والخيام على أصحابه، وأعطى عز الدين فرخشاه سراق سيف الدين، وكان عز الدين قد أبلى في ذلك اليوم بلاءاً حسناً.

ذكر ماجرى لصلاح الدين بعد انتصاره:

قال النويري: لما رجع الحلبيون الى حلب وهم منهزمون ندموا على نقضهم الايمان، ومخالفتهم لطاعة الرحمن، وشقهم العصا على السلطان، وتحصنوا بالبلد خوفاً من وثوب الاسد ابن أخي الاسد، وأسرع صاحب

الموصل فوصلها وماصدق حتى دخلها، وأما السلطان صلاح الدين فإنه لما فرغ من قسمة ماغنم أسرع المسير إلى حلب، فوجدهم قد حصنوها والقلعة قد أحكموها، فقال: من المصلحة أن نبادر إلى فتح الحصون التي حول البلد، ثم نعود إليهم فلا يمتنع علينا أحد منهم، فشرع يفتح الحصون حصناً حصناً ويهدم من أركان دولتهم ركناً ركناً، ففتح بزاعة ثم سار إلى أعزاز، فأرسل الحلبيون إلى سنان مقدم الفداوية، فأرسل جماعة من أصحابه ليقتلوا صلاح الدين، فدخلت طائفة منهم في زي الجند، فقاتلوا أشد القتال حتى اختلطوا بهم، ثم وجدوا فرصة ذات يوم والسلطان ظاهر للناس فحمل عليه واحد منهم فضربه بالسكين على رأسه، فإذا هي باللامعة فسلمه الله، غير أن السكين مرت على خده فجرحته جرحاً هيناً، ثم أخذ الفداوي رأس السلطان ليزبحه، ومن حوله قد أخذتهم دهشة، ثم تاب إليهم عقلهم فبادروا إلى الفداوي فقتلوه وقطعوا رأسه، ثم هجم آخر في الساعة الراهنة على السلطان فقتل ثم هجم آخر على بعض الأمراء فقتل أيضاً، وهرب الرابع فأدرك فقتل، وبطل القتال ذلك اليوم، ثم صمم السلطان على البلد ففتحه وأقطعه ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وقد اشتد حنقه على أهل حلب لما أرسلوا من الفداوية، وجاء فنزل تجاه البلد على جبل جوشن، وضرب خيمته على رأس الياروقية وذلك في خامس عشر ذي الحجة من هذه السنة، وجبى الأموال وأخذ الخراج من القرى ومنع أن يدخل البلد شيء أو يخرج منها شيء واستمر حصاره، إياها حتى انسلخت هذه السنة.

وفي تاريخ بيبرس: لما انهزم غازي وغنم صلاح الدين وعسكره ثقله وثقل عسكره، سير طائفة إلى بزاعة فحاصروها وقاتلوا من بها وأخذوها، ورتب بها من يحفظها، وسار إلى منبج فملكها عنوة وأخذ صاحبها أسيراً، وكان بينه وبين صلاح الدين عداوة قديمة، وهو قطب الدين ينال ابن حسان المنبجي، ثم أطلقه فسار إلى الموصل فأقطعه سيف الدين

غازي الرقة، ثم دخل إلى أعزاز فنازلها وحصرها وهي من أحصن القلاع، وقتل عليها كثير من العسكر، ثم ذكر حكاية الفداوية كما ذكرناها.

وفي المرأة: لما نزل صلاح الدين على منبج وبها قطب الدين ينال بن حسان، فقاتله واتفق وقوع ثلثة في السور، فطلب الامان لنفسه، فأمنه فخرج سليماً وأخذ صلاح الدين من الحصن ثلاثمائة ألف دينار، وعرض عليه المقام عنده فامتنع، وسار الى صاحب الموصل، كما ذكرناه، ثم سار السلطان ففتح حصن بزاعة، ثم نازل أعزاز فأقام عليها ثمانية وعشرين يوماً، وفتح في ذي الحجة من هذه السنة.

وفي تاريخ الدولتين: وهنأ العماد الكاتب السلطان بقصيدة منها:
فالحمد لله الذي أفضاله
حلوا الجناء على السنا وضاحه
عاد العدو بظلمه في ظلمة
في ليلة ويل قد خبا مصباحه
وجنى عليه جهله بوقوعه
في قبضة البازي فهيض جناحه
حمل السلاح الى القتال ومادى
أن الذي يجني عليه سلاحه

وقال: وكان لعز الدين فرخشاه في هذه الوقعة يد بيضاء.

وقال العماد: نظمت قصيدة والابيات منها:
نصر أنار الملكهم برهانه
وعلا لذة شانكم شانه
ما أسعد الاسلام وهو مظفر
وأبوا المظفر يوسف سلطاناه
الملك مرفوع لكم مقداره
والعدل موضوع بكم ميزانه

والدهري أتي بغير مرادكم
فعلى القضاء لأجلكم جريانه
فكأننا الله في أحكامه
فلك على إيثارككم دورانه
فخراً بنى أيوب إن فخارككم
بذل الملوك السابقين رهانه
يكفي حسودكم اعتقالاتهم
فكأننا أشجانه أشجانه
الدين عز الدين عز بنصركم
والكفر ذل بعونكم أعوانه
قد كان جيشهم كبحر زاهر
واللابسون جواشننا حيتانه

الآيات:

وقال العماد أيضاً في فتح منبج قصيدة منها قوله:
نـزولـك في منبـج
على الظفر المبهـج
ونجحـك في المرتـجـي
وفتحـك للمـرتـجـي
دليل على نجح مـا
تـحاول أو تـرتـجـي
أمـورك فيما تـروم
واضحـة المنهـج
وشانـيك دامـي الشؤ
ونـمـنـك شقـي شجـي

وقال ابن أبي طي: لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد إليه،
وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره، فكان في جملة أمواله

ثلاثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفي ألف دينار، فحان من السلطان التفاته فرأى مكتوباً على الأكياس والآنية يوسف، فقيل له ولد يؤثره ويحبه اسمه يوسف كان يدخر هذه الأموال له، فقال السلطان: أنا يوسف، وقد أخذت ما خبيء لي، فتعجب من ذلك.

وقال العماد أيضاً قصيدة في فتح أعزاز منها:
أعطاه رب العالمين دولة
عزة أهل الدين في أعزازها
حاز العلي بيأسه وجوده
وهو أحق الخلق باحتيازها

إلى أن قال:
تمن من فتح أعزاز نصرة
أوقعت العداة في اعتزازها
واليوم ذلت حلب فإنها
كانت تنال العزم من عزازها
وحلب تنفي كمشتكينها
كما انتفت بغداد من قيازه

ذكر بقية الحوادث:

منها: أنه في رمضان قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب من اليمن إلى الشام وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصله وكسرتهم، وكان شمس الدولة هو سبب الظفر وأعطاه السلطان سراق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام وأمره أن يكون في وجه الفرنج، لأن السلطان خاف من الحليين أن يكتبوا الفرنج على عاداتهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثانية والسبعين بعد الخمسةائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين صاحب مصر والشام محاصر لحلب، وقد ضجر الناس من طول الحصار، فترددت الرسل بينهم، وتقررت القاعدة بين صلاح الدين والملك الصالح ابن نور الدين، وسيف الدين غازي صاحب الموصل، وصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين، وتحالفوا أن يكونوا كلهم عوناً على الناكث الغادر.

وقال ابن كثير: وكان صلاح الدين قد أشرف على أخذ حلب فسألوه الصلح فصالحهم على أن تكون حلب وعملها للملك الصالح بن نور الدين فقط، وكتب بذلك الكتاب، فلما كان المساء بعث الملك الصالح إلى صلاح الدين يسأل منه زيادة قلعة عزاز، وأرسل بأخت له صغيرة وهي الخاتون بنت نور الدين ليكون ذلك أدعى إلى قبول السلطان سؤاله، فحين رآها صلاح الدين قام قائماً وقبل الأرض وأجابها إلى سؤالها، وأطلق لها من الجواهر والتحف شيئاً كثيراً.

ذكر رحيل صلاح الدين عن حلب:

ولما تعاهدوا على ما ذكرنا رحل صلاح الدين عن حلب يوم الجمعة لعشرين من المحرم، وقصد بلد الاسماعيلية الذين اعتدوا عليه، فحاصر حصنهم مصيات، فقتل وخرب وسبى حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة، لأنهم جيرانه، فقبل شفاعته، وقد أحضر إليه نائب بعلبك الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم، الذي كان نائب دمشق جماعة من أسارى الافرنج الذين عاثوا بالبقاع في غيبة السلطان واشتغاله بحصار مصيات، فجدد

له العزم على غزو الافرنج، فصالح الاسماعيلية أصحاب سنان ثم كر راجعاً إلى دمشق.

وفي تاريخ الدولتين: وكان الأسرى أكثر من مائتي أسير، وقال ابن أبي طي: وكان أكبر الدواعي في مصالحة صلاح الدين لسنان مقدم الاسماعيلية وخروجه من بلادهم خوفاً من الفرنج أن يهيجوا في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سنانا وعاد إلى دمشق.

وقال العماد: وكان خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الافرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر في تلك المروج، ووقع من أصحابه عدة في الأسار منهم سيف الدين أبو بكر السلا، ووصل السلطان إلى حماه واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر، وتعاقد الاخوان في المخيم بالميدان..... قال: ثم سرنا إلى دمشق ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة، وعزم إلى مبصر السفر... وفي هذا الشهر تزوج صلاح الدين بالست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر، وكانت زوجة الملك نور الدين الشهيد رحمه الله، فأقامت بعده في القلعة محترمة مكرمة، وولي تزويجها منه أخوها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر، وحضر القاضي ابن أبي عصرون العقد ومعه جماعة من العدول، وبات السلطان عندها تلك الليلة والليلة التي بعدها ثم سافر إلى مصر بعد يومين من الدخول بها.

ذكر توجه صلاح الدين من دمشق إلى مصر:

خرج من دمشق يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول، ونزل بمرج الصفر ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين.

ذكر دخول صلاح الدين القاهرة:

دخل السلطان صلاح الدين القاهرة يوم السبت السادس عشر من ربيع الأول، وتلقاه أخوه الملك العادل سيف الدين إلى عند بحر القلزم ومعه من الهدايا والتحف شيء كثير، ولا سيما من المأكّل المتنوعة.

ذكر ماصدر من صلاح الدين بعد دخوله القاهرة:

من ذلك أنه أمر ببيع الكتب في القصر كل اسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان، وكانت كتب كثيرة جداً، قالوا إنها كانت أكثر من مائة ألف مجلد، وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين مجلداً، وكانت خزائن مملوءة بها في القصر، وكان الحاكم على القصر ومتولي أموره الأمير بهاء الدين قراقوش، ولما حضرت الناس للشراء، كان الدلالون يخرجون عشرة من كل فن، كتباً مميزة وتباع بالهون، وتسام بالدون، وربما كان دلال يشارك مع واحد فتقوم عنده بعشرة ثم بعد ذلك يبيعونه بمائة.

قال العماد: ولما رأيت الأمر حضرت واشتريت كما اشتروا، واستكثرت من ذلك، ولما عرف السلطان بذلك، وكان بمئين، أنعم بها عليّ، وأبرأ ذمتي من ثمنها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ما عينت عليه من كتبها، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر وهو ينظر في بعضها، وقال: كنت طلبت كتباً عينتها، فهل في هذه منها شيء؟ فقلت كلها وما استغني عنها فأخرجتها من عنده بحمال، وكان هذا بالنسبة إلى جوده أقل نوال.

ومن ذلك أنه أمر ببناء سور على مصر والقاهرة، ودور السور تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة ذراع بالهاشمي.

وفي تاريخ الدولتين: ولما تملك السلطان مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها، وقال: إن أفردت كل واحدة بسور أحتاج إلى جند مفرد يحميها، وإني أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطيء إلى الشاطيء، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم.

وقال العماد: ومبلغ السور وهو دائر بالبلدين: مصر والقاهرة، بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وذراعان، من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطيء النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنتان وتسعون ذراعاً، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ودائر القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع، وذلك طول قوسه في أبراجه وأبدانه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع الهاشمي بتولي الأمير شهاب الدين قراقوش الأسدي، وبنى القلعة على الجبل وقطع الخندق وحفر واديه، وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها، ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئر ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع، والعمارة مستمرة، ووظائف نفقاتها مستدرة.

ومن ذلك أن السلطان رحمه الله أمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية، ورتب قواعدها، وتولاه الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني، وأمر أيضاً باتخاذ دار في القصر ببيمارستاناً للمرضى ووقف على المدرسة والبيمارستان وقوفاً كثيرة.

ذكر خروج صلاح الدين إلى الاسكندرية:

ثم إن السلطان صلاح الدين خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، واستصحب معه ولديه الافضل عليا والعزیز عثمان، وجعل طريقه على دمياط فأقام بظاهرها يومين، ثم وصل إلى ثغر الاسكندرية.

قال العماد: وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد ابن محمد السلفي، وسمعنا عليه ثلاثة أيام: الخميس والجمعة والسبت رابع عشر شهر رمضان. قال: وشاهدنا ما استجده السلطان من السور الدائر وما انصرفنا حتى أمر باتمام الثغور وتعمير الاسطول.

وقال ابن أبي طي: ولما نوى السلطان المقام بالاسكندرية ليصوم فيها، رأى ان لا يخلي نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين، فرأى الاسطول وقد اخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فأمر بتعمير الاسطول وجمع له الأخشاب والصناعات كثيرة، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الاسطول إليه، وشحنه بالرجال، وولى فيه أحد أصحابه، وأفرد له اقطاعاً مخصوصاً وديواناً مفرداً، وكتب إلى سائر البلاد المصرية بقبول قول صاحب الاسطول وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الاسطول أن لا يباحر البحر، ويغزى إلى جزائر البحر.

ذكر مجيء الرسل إلى صلاح الدين:

وفيها وصلت الرسل إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب، وهم رسول سيف الدين صاحب الموصل، ورسول صاحب حصن كيفا، ورسول صاحب ماردين، فأولاً جاءوا إلى دمشق فاستوثقوا

بتحليف أخيه السلطان صلاح الدين وهوشمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب الحصن في الأسر.

وقال ابن أبي طي: وصل رسول صاحب الموصل القاضي عماد الدين ابن كمال الدين الشهر زوري بهدية وقود، فخرج الموكب إلى لقائه وأكرمه السلطان واحترمه وقدم بعده رسول نور الدين قرا أرسلان، ورسول صاحب ماردين بهدايا، واجتمعوا في دمشق وخرجوا إلى السلطان بمصر فاعترضهم الفرنج، وأسر رسول صاحب الحصن ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان فأطلقه وأحسن إليه.

ذكر خروج صلاح الدين إلى مرج فاقوس من أعمال مصر:

قال العماد: ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لارهاب العدو، وهو يركب للصيد والقنص، ويتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص.

وقال في الخريدة: كنا نخيمين على مرج فاقوس مصممين على الغزاة إلى غزة، وقد وصلت أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية تسبي الكفار، وقد أوفت على ألف رأس عدة من وصل في قيد الاسار، وسنذكر خروجه في الغزاة في السنة الآتية إن شاء الله.

وفي هذه السنة أبطل صلاح الدين الذي كان يؤخذ من الحج بجده مما يحمل في البحر، وعوض صاحب مكة عنها في كل سنة ثمانية آلاف اردب قمحا تحمل إليه في البحر ويحمل مثلها فتفرق في أهل الحرمين.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن صاحب المرأة ذكر أن في هذه السنة كانت نوبة الكنز مقدم

السودان بالصعيد، جمع كل أسود بالصعيد، وسار إلى القاهرة في مائة ألف ليعيد الدولة المصرية، فخرج إليه الملك العادل سيف الدين أبو بكر، وأبو الهيجاء الهكاري، وعز الدين موسك، والتقوا فقتل الكثر ومن معه، ويقال إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفاً، وعادوا إلى القاهرة.

ومنها ما ذكره في المرأة أنه خرج الفرنج إلى بقاع بعلبك، وكان شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بها، فخرج وكمز لهم في الشعاري والغياض وأوقع بهم وقتل وأسر نحو مائتي رجل.

ومنها أن الروم قصدت بلاد قليج أرسلان بن مسعود في جمع من الحشود فالتقاهم وكسرههم وقتل منهم جماعة وأسر أسرى كثيرين، وبعث برؤوس القتلى وبيع بعض الأسرى إلى الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين.

ومنها أنه عصى شهاب الدين محمد بن نزار صاحب شهرزور على سيف الدين غازي، وكان في طاعته وتحت حكمه وكان سبب ذلك أن مجاهد الدين قايباز كان متولي مدينة إربل، وكان بينه وبين ابن نزار عداوة فأرسل إليه وزير سيف الدين كتاباً يأمره بالعود إلى الطاعة، والرجوع عن المخالفة والمعصية، فلما وصل الكتاب إليه بادر إلى الحضور للخدمة السيفية بالموصل فأوجب ماجرى من ابن نزار.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

قاضي القضاة الشهرزوري: أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله ابن أبي أحمد الشهرزوري، الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي، قاضي القضاة بدمشق، وكان فاضلاً ديناً أميناً ثقة ورعاً، ولي القضاء بدمشق لنور الدين محمود بن زنكي، واستوزره أيضاً فيما حكاه ابن الساعي، قال: وكان يبعثه في الرسائل، كتب مرة على أعلى القصة: محمد بن عبد

الله الرسول، فكتب الخليفة تحت ذلك: صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن كثير: وقد فوض إليه نور الدين نظر الجامع ودار الضرب، وعمر له المدارس والمدارس وغير ذلك من الأمور.

وقال ابن خلكان: وكانت ولادته سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة بالموصل، وتوفي يوم الخميس سادس المحرم من سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بدمشق، ودفن من الغد بجبل قاسيون، وقال: ولما ملك صلاح الدين الشام أقره على ما كان عليه في أيام نور الدين، وكان شهياً جسوراً كثير الصدقة والمعروف، وقف أوقافاً كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق، وبني بالموصل مدرسة للشافعية ورباطاً بمدينة الرسول عليه السلام، وتولى القضاء بالموصل أيضاً وله نظم جيد، فمن ذلك قوله:

ولقد أتيتك والنجوم رواصد

والفجر وهم في ضمير المشرق

وركبت من أهوال كل عظمة

شوقاً إليك لعننا أن نلتقي

وفي المرأة: قدم بغداد وتفقه على أسعد الميهني بالنظامية، وسمع الحديث ببغداد والموصل، وكان رئيس أهل بيته، وولي القضاء بدمشق وحمص وحماة وحلب وجميع الشام في أيام نور الدين وكان إليه أمر المدارس والمساجد والأوقاف والحسبة والأمور الدينية والشرعية، وكان صاحب القلم والسيف، وكانت شحنة دمشق إليه، ولما فيها بعض غلمانها، ثم ولاها نور الدين لصلاح الدين، وكانت بينهما مضاجعة، وكل واحد منهما ينقض حكم الآخر، فلما كتب إليه صلاح الدين بأن يساعده على أخذ دمشق أعانه وفتح له أبوابها، فلما دخلها صلاح الدين مشى إلى دار كمال الدين، وطيب قلبه، وجاء إلى الشيخ أحمد والد الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة، وأحمد أول من سكن جبل قاسيون، فزاره ومعه ألف دينار، فدفعها للشيخ أحمد فامتنع من أخذها، فاشترى كمال

الدين قرية الهامة بوادي بردى، ووقف نصفها على الشيخ أحمد والمقادسة والنصف الآخر على الاسارى، وهي باقية إلى هلم جرا، ولما مرض كمال الدين وهو بدمشق بلغ ابن أبي عصرون، وهو بحلب، فقدم دمشق ودخل على القاضي كمال الدين وعانقه وبكيا، فلما توفي كمال الدين تولى ابن أبي عصرون أمره، وخرج في جنازته ماشياً هو وجميع الملوك مشاه: سيف الاسلام، وتقي الدين عمر، وشمس الدولة وغيرهم وصلى عليه بجامع دمشق وحمل إلى قاسيون فدفن بسفحه قريبا من الجادة عند مسجد البصار، ولم يكن عنده من أولاده أحد، وإنما كان عنده ابن أخيه ضياء الدين أبو الفضائل، وكان كمال الدين قد تصدق بجميع ما كان عنده، وأوصى بهاله ووقف أوقافا كثيرة على أبواب البر، وقيل إنه لم يكن له كفن فكفن في احرامه، وأوصى بالقضاء إلى ابن أخيه ضياء الدين مع وجود ولده، وكان لكمال الدين ولد اسمه محمد بن عبد الله، ولقبه محيي الدين، وكان أبوه ضياء الدين قاضيا على حلب، وهو تاج الدين الشهرزوري.

وفي تاريخ الدولتين: ولما مات كمال الدين كان عمره ثمانين سنة.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والسبعين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله العباسي، والسلطان صلاح الدين نجيم بمرج فاقوس ثم عاد إلى القاهرة وأقام بها، ثم قصد أنه يسير إلى غزة وعسقلان.

ذكر غز وصلاح الدين عسقلان والرملة:

وفي جمادى الأولى سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى ساحل الشام لغزو الافرنج، فوصل إلى عسقلان والرملة في الرابع والعشرين من الشهر فنهب، وتفرق عسكره في الاغارة، وبقي السلطان في بعض

العسكر فلم يشعر الا بالافرنج قد طلعت عليهم، فقاتلهم، وكان لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد حسن الصورة لما بدت لحيته، فأمره أبوه تقي الدين بالحملة على الافرنج، فحمل عليهم وقاتلهم وأثر فيهم أثراً كبيراً، فعاد سالماً، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية، فحمل عليهم فقتل شهيدا، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الفرنج للسلطان، فمضى منهزماً الى مصر على البرية ومعه من سلم، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشاً شديداً، وهلك كثير من الدواب، وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا تفرقوا للاغارة أسرى، وأسر للملك المظفر تقي الدين عمر ولده شاهنشاه، فبقي عندهم سبع سنين، وقتل ابنه الآخر كما ذكرنا، فحزن على المقتول والمفقود، وصبر تأسيا بأيوب وناح كما ناح داود، وكذلك أسر الفقيهان الاخوان: ضياء الدين عيسى وظهير الدين، وكانا من أكبر أصحاب السلطان صلاح الدين فافتداها السلطان بعد سنتين بسبعين ألف دينار، ووصل السلطان الى القاهرة في نصف جمادى الآخرة.

وفي المرة: خرج صلاح الدين في جمادى الآخرة من مصر بالعساكر، ونزل على عسقلان، ثم نزل يريد تل الصافية، فازدحمت العساكر على الجسر تريد العبور، فلم يشعروا إلا وقد خالطهم الفرنج، فثبت تقي الدين عمر وقاتل ثم غلب، وقتل من المسلمين خلق كثير وانهمزمت عساكر الاسلام، وأسر كثير منهم الفقيه عيسى وغيره، ولولا أن الليل حجز بينهم لم يبق من المسلمين أحد، وسار صلاح الدين في الليل الى مصر من غير دليل ولا ماء ولا زاد، وكانت هذه الواقعة من أعظم الوقائع، ونكب صلاح الدين نكبة شديدة وكاد يتلف جوعاً وعطشاً، ونهبت خزائنه وقتل رجاله وأسر أبطاله، وكان مقدم الفرنج أرناط، وكان من أكبر ملوك الافرنج، وما أئلف عسكر المسلمين الا انهم كانوا تفرقوا في الغارات، وكانوا زيادة على عشرين ألفاً، ووقعت الكسرة ومعظمهم لم يعلم، فلما رجعوا من الغارات لم يجدوا صلاح الدين، ولم يكن لهم

حصن يأوون إليه، فدخلوا الرمل وتبعهم الفرنج قتلاً وأسراً، ومن سلم منهم مات جوعاً وعطشاً، وكان يوماً عظيماً على الاسلام لم يجبره الا وقعة حطين، ورجع أرناط بجمعه إلى حماه كما نذكره ان شاء الله الآن.

وقال ابن الأثير: كتب صلاح الدين بخط يده إلى أخيه تورانشاه نائبه بدمشق يذكر له الوقعة وفي أوله:
ذكرتك والخطي يخطريننا
وقد نهلت من المثقفة السمر

ويقول فيه: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الا الله سبحانه وتعالى منه، إلا لأمر يريد سبحانه (١٩)

ذكر حصر الفرنج حماه: وذلك أنه وصل من الفرنج كند كبير في البحر، فرأى صلاح الدين وقد عاد منهزماً إلى مصر فاعتزم خلو البلاد، وليس بها إلا شمس الدين تورانشاه بن أيوب نائباً عن أخيه، وليس عنده كثير من العسكر، فجمع الكند من بالشام من الفرنج، وفرق فيهم الأموال، وسار الى مدينة حماة وبها شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي خال صلاح الدين، وهو يومئذ مصاب بمرض شديد، وكانت لطائفة من العسكر الصلاحي بالقرب منها، فدخلوا إليها وأغاثوا من بها، وقاتلوا الفرنج قتالاً شديداً، ودخل الفرنج البلد، فاجتمع العسكر وأهل البلد وقاتلوه حتى أزاحوهم منها وأخرجوهم إلى ظاهرها، فساروا الى حارم، واتفقت وفاة شهاب الدين الحارمي على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال العماد: ومن شرط هدنة الفرنج أنه متى جاء ملك من ملوكهم كبير لا يمكنهم دفعه، فإنهم يقاتلون معه ويؤازرونه وينصرونه، فإذا انصرف عنهم عادت الهدنة كما كانت، فقصد هذا الملك وجملة الفرنج معه مدينة حماة وصاحبها شهاب الدين مريض، ونائب دمشق ومن معه

من الامراء مشغولون بلذاتهم فكادوا يأخذون البلد، ولكن هزمهم الله تعالى بعد أربعة أيام، فانصرفوا إلى حصن حارم فلم يتمكنوا من أخذه وكشفهم عنه الملك الصالح صاحب حلب، وقد دفع إليهم من الأموال والأسارى ماطلبه الكفرة النصارى.

وقال العماد أيضاً: ووصل في هذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير يقال له اقلندس أكبر طواغيت الكفر، قلت: هذا هو الذي ذكرناه الآن، الذي جرى منه ماجرى.

ذكر توجه صلاح الدين الى الشام:

لما سمع السلطان بنزول الفرنج على حارم برز من الديار المصرية قاصداً إلى بلاد الشام لغزو الفرنج، ونزل في البركة حتى خرجت العساكر، ورحل من البركة يوم عيد الفطر بعساكره، ووصل إلى أيلة في عاشر الشهر، واستناب أخاه بمصر الملك العادل، وأقام بها أيضاً القاضي الفاضل بنية الحج، وسافر العماد معه، ووصل السلطان إلى دمشق في الرابع والعشرين من شوال وبها أخوه شمس الدولة مشغولاً بلذاته ولهوه، وكان قد بعث إلى الفرنج ببال مصانعة، فعز على صلاح الدين ولامه وقبح فعله، وقال: أنت مشغول باللعب وتضييع أموال المسلمين، وأقام صلاح الدين بدمشق.

ذكر قبض الملك الصالح صاحب حلب على كمشتكين مدبر دولته:

قال العماد: وقعت المنافسة بين الخليين مدبري الملك الصالح، واستولى على أمره العدل ابن العجمي أبو صالح، وكان سعد الدين كمشتكين الخادم مقدم العسكر وأمير المعشر، وهو صاحب حصن حارم، وقد حسده أمثاله من الأمراء والخدام فسلموا لابن العجمي

الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة في جامع حلب فقتلوه، واستقل كمشتكين بالأمر فتكلم فيه حساده، وقالوا للملك الصالح: ماقتل وزيرك ومشيرك ابن العجمي إلا كمشتكين فهو الذي حسن ذلك للاسماعيلية، وقالوا له: أنت السلطان وكيف يكون لغيرك حكم أو أمر، فما زالوا عليه حتى قبض عليه، وطالبوه بتسليم قلعة حارم، فكتب إلى نوابه بها وأبوا، فحملوه ووقفوا به تحت القلعة وخوفوه بالصرعة، فلما طال أمره قصر عمره.

ونزل عليه الأفرنج ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين، وولى بها مملوكاً يقال له سرخك.

وقال ابن الأثير: سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين، فعاقبه ليأمر من بها بالتسليم، فلم يجب إلى ما طلب منه، فعلقوه منكوساً ودخن تحت أنفه، فمات، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها، ثم إنه أخذها بعد ذلك.

قال ابن شداد: أما الملك الصالح فإنه تخبط أمره، وقبض على كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة، وقاتل عسكر الملك الصالح العساكر الأفرنجية، ولما رأى أهل القلعة حصرها من جانب الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأخير من رمضان، ولما عرف الفرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم، ثم عاد الصالح إلى حلب، ولم يزل أصحابه على الاختلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان صلاح الدين رحمه الله.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أنه اجتمعت طائفة من الأفرنج وقصدوا أعمال حمص، فقتلوا

وأسروا وسبوا، فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه إليهم وسبقهم ووقف على طريقهم مكمنا لهم، فلما وصلوا خرج عليهم هو والكمين، ووضع السيف فيهم، فقتل أكثرهم، ومن سلم منهم لم يفلت إلا مشخا بالجراح واسترجع منهم جميع ما أخذوه، وردّه على أصحابه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

الأمير شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي خال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، كان من خيار الأمراء وشجعانهم، وقد أقطعه ابن أخته حمّاه حين فتحها، وقد حاصره الفرنج هناك وهو مريض، وكادوا يأخذون البلد ولكن هزمهم الله بعد أربعة أيام كما ذكرنا، فانصرفوا خائينين، وتوفي شهاب المذكور بعد ذلك في هذه السنة، وأعطى صلاح الدين حمّاه لناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب صهيون، وقيل إنما أعطاهما لتقي الدين عمر، وكان ناصر الدين نائباً عنه والله أعلم.

كمشتكين الخادم، خادم نور الدين محمود بن زنكي، وكان من أكابر خدامه ولاه قلعة الموصل نيابه عنه، فلما مات نور الدين هرب إلى حلب، وأقطعه الملك الصالح حارم، وأقام بها وعصى عليه، فلما حصره الفرنج صالحه كما ذكرناه، ثم قتله الملك الصالح كما ذكرناه.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والسبعين بعد الخمسةائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله، والسلطان صلاح الدين بالشام، وجاءه كتاب من القاضي الفاضل وهو بالديار المصرية يهنئه بولود مولود له وهو أبو سليمان داود، وهو موف لاثنى عشر ولداً، وقد ولد بعده عدة ذكور أيضاً، فإنه توفي عن سبعة عشر ولداً

ذكرًا، وابنة صغيرة وهي مؤنسة خاتون التي تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد بن الملك العادل كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، وذكر هذا في تاريخ الدولتين في السنة الماضية، نقلًا عن العماد الكاتب.

وفي رمضان وصلت الخلع السنية من الخليفة إلى السلطان صلاح الدين، وهو بدمشق، وزيد في ألقابه: معز أمير المؤمنين، وخلع أيضاً على أخيه تورانشاه ولقب بمصطفى أمير المؤمنين.

وفي هذه السنة أسقط صلاح الدين المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة، وقد كان يؤخذ منهم شيء كثير، ومن عجز عن أدائه حبس، وربما فاته الوقوف بعرفه، وعوض السلطان أميرها بما لا يحمل إليه من مصر وبغداد في كل سنة ثمانية آلاف اردب ليكون عوناً له ولاتباعه، وقرر أيضاً قدر ذلك للمجاورين يحمل إليهم في كل سنة.

ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين رحمه الله:

وفيها عصى شمس الدين بن المقدم بعلبك، وكان صلاح الدين قد أعطاه إياها، وقدم صلاح الدين إلى دمشق فأرسل يطلبه فاعتذر خوفاً من شمس الدولة لأنه طلب منه بعلبك فامتنع، فخرج صلاح الدين من دمشق ونزل على بعلبك، وأقام سبعة أشهر يحاصرها فنقد ما عنده، فأرسل إلى السلطان يطلب العوض، فأعطاه بارين وكفر طاب، وخرج شمس الدين بن المقدم إليها، وسلم صلاح الدين بعلبك إلى أخيه شمس الدولة.

وقال ابن كثير: وكان صلاح الدين نازلاً على ظاهر حمص ولم يجيء إلى خدمته ابن المقدم المذكور لأنه بلغه أن أخاه تورانشاه طلب بعلبك منه فأطلقها له، فامتنع ابن المقدم من الخروج إليه لذلك، وجاء السلطان إلى دمشق ثم حضر إلى بعلبك بنفسه فحصره فيها من غير قتال حتى

جاءت الامطار والثلوج والبرد، فعاد إلى دمشق في رجب ووكل بالبلد من يحصره بغير قتال، ثم حصل التعويض، فخرج كما ذكرنا.

ذكر تجهيز صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب لغزو الافرنج:

وفي هذه السنة جهز صلاح الدين المذكور بين يديه لقتال الفرنج الذين قد عزموا على قتال المسلمين، وعاثوا في نواحي دمشق وقراها بالفساد، وأمره أن يداريهم حتى يتوسطوا البلاد ولا يقاتلهم حتى يقدم عليه، فلما التقوا عاجلوه بالقتال فكسروهم وقتل من ملوكهم صاحب الناصرة وهو الكنفري، وكان من أكابر ملوكهم، وركب صلاح الدين رحمه الله في أثر ابن أخيه، فما وصل الكسوة حتى تلقته الرؤوس على الرماح والغنائم والأسرى.

وفي المرأة: بلغ صلاح الدين أن الكنفري يريد أن يغير على دمشق، فبعث عز الدين فرخشاه ابن أخيه بعساكر دمشق، وقال له يقيم عند مرج عيون، فإن جاءوا فأرسل كتب الطيور إلي ولا تواقعهم حتى أتيك، فسار ونزل مرج عيون، فلم يشعر إلا بطلائع الكنفري قد خالطته، ووقع القتال فلم يقدر فرخشاه على اعلام صلاح الدين فقاتلهم بنفسه، وجرح الكنفري جراحة موثقة فأخذه وانهمزوا، وغنمهم فرخشاه، ومات الكنفري بعد أيام، وجاء صلاح الدين فنزل قصر يعقوب، وبعث السرايا والغارات إلى بلد الافرنج.

ذكر بناء الافرنج قلعة عند بيت الاحزان:

وفي هذه السنة بنت الفرنج لعنهم الله قلعة عند بيت الاحزان للدواية، فجعلوه مرصاداً لحرب المسلمين وقطع طرقاتهم عليهم، ونقضت ملوكهم العهود التي كانت بينهم وبين صلاح الدين، وأغاروا

على نواحي البلدان من كل جانب ليشغلوا المسلمين عنهم، وتتفرق جيوشهم فلا تجتمع في بقعة واحدة، فرتب السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر بثغر حماه، ومعه شمس الدين ابن المقدم، وسيف الدين علي ابن أحمد المشطوب، وبثغر حمص ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، وبعث إلى أخيه سيف الدين أبي بكر وهو الملك العادل نائب مصر، يأمره أن يرسل إليه بألف وخمسمائة فارس يستعين بهم على قتال الافرنج، وكتب إلى الافرنج يأمرهم بتخريب هذا الحصن الذي بنوه للداوية فامتنعوا الا ان يبذل لهم ماغرموه عليه، فبذل لهم ستين ألف دينار، فلم يقبلوا، فوصلهم إلى مائة ألف دينار، فأبوا، فقال له ابن أخيه تقي الدين عمر: ابذل هذه في أجناد المسلمين، وسر إلى هذا الحصن، ففعل ذلك.

ثم استهلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة:

كان السلطان صلاح الدين نازلا بجيشه على تل القاضي ببانياس، ثم قصده الافرنج بقضهم وقضيضهم، فنهض إليهم فالتقاهم، فهاهو الا ان تواجه الفريقان حتى أنزل الله تعالى نصره، فانهزمت الافرنج، وقتل منهم خلق كثير، وأسر منهم جماعة من ملوكهم منهم مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وصاحب الرملة، وصاحب طبرية، وقسطلان يافا وآخرون من ملوكهم، وخلق من شجعانهم وأبطالهم ومن فرسان القدس جماعة كثيرون، تقريبا من ثلاثمائة أسير من فرسان النصارى.

وفي تاريخ بيبرس: وكان فيمن أسر بادين بن بارزان، وأود بن القومصية، وأخو صاحب جيبيل، فحملوا إلى قلعة دمشق فاعتقلوا بها، فأما بن بارزان فاستفك نفسه بجملة عظيمة، وبألف أسير، واستفك ابن القومصية أيضاً، ومات أود في السجن.

وقال العماد الكاتب: لما أسر هؤلاء استعرضهم السلطان في الليل حتى أضاء الفجر، وصلى يومئذ الصبح بوضوء العشاء، وقد كان السلطان ليلتذ جالساً في نحو العشرين، وهم في هذه العدة، فسلمه الله منهم، ثم أرسلهم إلى دمشق ليعتقلوا بقلعتها، فافتدى ابن بازان صاحب الرملة نفسه بعد سنة بمائة ألف دينار وخمسين ألف دينار صورية واطلاق ألف أسير من بلاده، وكذا افتدى جماعة منهم أنفسهم بأموال جزيلة وتحف جليلة، ومنهم من مات في السجن فانتقل منه إلى سجين.

واتفق أنه في اليوم الذي ظفر فيه السلطان على الفرنج بمرج عيون هذا ظهر الاسطول على بطسة للفرنج في البحر وأخرى معها، فغنموا منها ألف أسير من السبي، وعاد إلى الساحل مؤيدا منصورا، وقد امتدح الشعراء السلطان في هذه الغزوة بمدائح كثيرة، وكتب بذلك إلى بغداد، فدقت البشائر بها فرحاً، وسروراً، وقد كان الملك المظفر تقي الدين عمر غائباً عن هذه الواقعة مشتغلاً بما هو أعجب منها، وذلك أن ملك الروم قليج أرسلان بعث يطلب حصن رعبان، وزعم أن نور الدين محمود اغتصبه منه، وأن ولده قد أغضى له عنه، فلم يجبه إلى ذلك السلطان، فبعث صاحب الروم عشرين ألف مقاتل يحصرونه، فأرسل السلطان تقي الدين عمر في ثمانمائة فارس، منهم سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، فالتقوا بهم فهزموهم باذن الله، فاستقرت يد الملك الناصر صلاح الدين على حصن رعبان، وقد كان قديماً مما عوض به ابن المقدم عن بعلبك، وكان تقي الدين عمر يفتخر بهذه الواقعة، ويرى أنه قد هزم عشرين ألفاً، وقيل ثلاثين ألفاً بثمانمائة، وكان السبب في ذلك أنه بيتهم وأغار عليهم وهم غارون، فما لبثوا أمامه بل فروا منهزمين عن آخرهم، فأكثر فيهم القتل واستحوذ على جميع متركوه في خيامهم.

ثم ركب صلاح الدين في جحافله إلى الحصن الذي كانت الفرنج قد

بنوه في سنة أربع، وسبعين وخمسمائة وحفروا فيه بئراً وسلموه إلى الداوية، فقصده السلطان فحاصره ونقبه من جميع جهاته، وألقى فيه النيران فجعله دكاً وخربه إلى الأساس، وغنم مافيه من الخواصل، فكان فيه مائة ألف قطعة من السلاح ومن المأكّل كل شيء، وأخذ منه سبعمائة أسير، فقتل بعضاً وأرسل إلى دمشق الباقين، ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً، غير أنه مات من أمراضه عشرة بسبب ما نالهم من البر والوباء في مدة الحصار، وكانت أربعة وعشرين يوماً، وعاد الناس إلى زيارة مشهد يعقوب عليه السلام على العادة القديمة، وكان الحصن المذكور الذي بناه الأفرنج قريباً من صفد، وكان عرض سورته عشرة أذرع، وارتفاعه أربعون ذراعاً، وكان بيت الأحزان الذي يزعمون أن يعقوب عليه السلام كان ينفرد فيه ويكي على يوسف، عليه كنيسة، فجعله السلطان مسجداً، وقد امتدحه الشعراء، فقال بعضهم وهو أحمد بن نقاده الدمشقي:

هلاك الفرنج أتى عاجلاً
وقد آن تكسير صلبها
ولو لم يكن قد دنّا حنقها
لما عمّرت بيت أحزانها

ذكر الأمور المزعجة:

منها كان غلاء شديد بسبب قلة المطر وعمّ العراق والشام وديار مصر واستمر إلى سنة خمس وسبعين، فجاء المطر ورخصت الأسعار، ولكن تعقب ذلك وباء شديد وعم البلاد مرض واحد وهو البرسام، فما ارتفع إلا في سنة ست وسبعين، فمات في ذلك الوباء خلق كثير وأمم لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل.

ذكر بقية الحوادث:

ومنها أن الفرنج قصدوا مدينة حماة وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً في النهب والغارة، فشنوا الغارة ونهبوا وأحرقوا وأسروا وقتلوا، فلما سمع العسكر المقيمون بحماة ساروا إليهم متوكلين على الله لأنهم كانوا عدة قليلة، وصدقوا القتال فنصرهم الله، وانهزمت الافرنج وكثر القتل والاسر واستردوا منهم ماغنموا، ووصل صلاح الدين إلى حماه، فأمر باحضار الاسارى وقتلهم، فأحضروا وقتلوا.

ومنها أن السلطان ختن ولده الملك العزيز عثمان فاتخذ له يوسف بن الحسين، ويعرف بابن المجاور معلماً، وتسلم فرخشاه بعلبك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السادسة والسبعين بعد الخمسةائة:

ذكر ماجريات صلاح الدين رحمه الله:

منها أنه سار بعساكره إلى أن وصل إلى رعبان منجداً لنور الدين محمد ابن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا على قليج أرسلان بن مسعود ملك الروم، وسبب ذلك أن نور الدين بن محمد بن قرا أرسلان تزوج بابنة قليج أرسلان، ثم أحب مغنية وتركها نسياً منسياً، فشكت حالها إلى أبيها، فعزم على قصد بلاده، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستنجده ويسأله كف يد قليج أرسلان عنه، فأرسل صلاح الدين إلى قليج أرسلان في ذلك، فأعاد الجواب: إنني كنت عند تزويجه ابنتي دفعت إليه عدة حصون، ولا بد من اعادتها إليّ، وكان صلاح الدين قد هادن الفرنج فسار في عساكره نحو بلاد قليج أرسلان وهي: ملطية، وسيواس، وقونية، ومايينها، فلما سمع قليج أرسلان بقربه منه أرسل إليه بعض أمرائه، وذكر له بعض الحديث الذي جرى منه، فقال صلاح

الدين للرسول: قل لصاحبك لئن لم ترجع عن بلاده لاسيرن إلى ملطية ، ولا أنزل عن فرسي الا في الباب، وكان الرسول قد عاين جيشاً عظيماً، وكان عاقلاً أريباً، فقال لصلاح الدين: أريد أقول للسلطان كلاماً لم يرسلني به استاذي؟ فقال له: تعطيني الأمان؟ فقال: قل وأنت آمن، فقال: يامولانا أما هو قبيح بمثلك وأنت أعظم السلاطين قدراً وأكبرهم شأنًا ان يسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة، وأعرضت عن كل مافيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة، وخسرت أنت وعسرك الأموال العظيمة لأجل قحبة مغنية، مايكون عذرك عند الله تعالى، ثم عند الخليفة وملوك الاسلام، وكافة العالم، وهب أن أحداً ما يواجهك بهذا، أما يعلمون ان الامر كذا، ثم احسب أن قليج أرسلان مات وهذه ابنته قد ارسلتني إليك تستجير بك وتسألك أن تنصفها من زوجها، فإن فعلت فهو الظن، وإن لم يكن أفيحسن بك أن تردها، فقال صلاح الدين: الحق ببلدك وإن الامر لكما تقول، ولكن هذا الرجل دخل علي واستجار بي، ويقبح بي تركه، ولكن اجتمع به وأصلح الحال بينكم على ماتحبون وأعينكم عليه، ووعد من نفسه بكل جميل، واجتمع الرسول بنور الدين بن قرا أرسلان، وترددا القول بينهم فاستقر له أن يخرج المغنية بعد سنة، وإن لم يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ويكون هو وقليج أرسلان عليه، ولما تقرر الحال على ذلك قصد صلاح الدين بلاد ابن لاون، وذلك أنه كان قد استمال قومًا من التركمان وبذل لهم الامان وأمرهم أن يرعوا مواشيهم في بلاده، وهي بلاد حصينة منيعة كثيرة الوعر، ثم غدر بهم، وسبى حريمهم وأخذ أموالهم، وأسر رجالهم وقتل منهم جماعة، فنزل صلاح الدين على النهر الأسود، وبث الغارات على بلاده، فخاف ابن لاون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ، فخربه وأحرقه، وهو يسمى حصن المناقير، وسمع صلاح الدين بذلك فأسرع السير فأدركه قبل أن ينقل مافيه من ذخائر وأقوات فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه، فأطلق ابن

لاون من عنده من أسرى التركمان، وأعاد السبي والأموال، وعاد صلاح الدين، وتوجه إلى مصر ومعه الملك الظاهر غازي، والملك العزيز ولداه واستخلف على الشام ودمشق عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه ابن أخيه.

ومنها أنه في رجب قدمت رسل الخليفة الناصر لدين الله ومعهم خلع وهدايا إلى الملك الناصر صلاح الدين فلبس السلطان خلع الخليفة بدمشق، وزينت له البلاد، وكان يوماً مشهوداً.

وفي المرأة: وفيها وصل شيخ الشيوخ وصحبته رسول الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومعهما خلع وهدايا، فلبس السلطان الخلع بدمشق وزينت له المدينة، وكان يوماً مشهوداً.

ومنها أن السلطان سار من الشام إلى الديار المصرية لينظر في أحوالها وأمورها ويصوم بها رمضان، ومن عزمه أن يحج عامه ذلك إلى بيت الله الحرام، واستتاب على الشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب، وكتب القاضي الفاضل عن الملك العادل أبي بكر نائب مصر إلى أهل اليمن ومكة يعلمهم بعزم السلطان على الحج في هذا العام إلى المسجد الحرام ليتأهبوا للملك ويهتموا به، واستصحب السلطان معه صدر الدين أبا القاسم عبد الرحيم بن شيخ الشيوخ ببغداد، الذي قدم في الرسالة من جهة الخليفة ليكون في خدمته إلى الديار المصرية، وفي صحبتته إلى الحجاز الشريف، فدخل السلطان مصر وتلقاه الجيش، وكان يوماً مشهوداً، وأما صدر الدين فإنه لم يقم بها إلا قليلاً حتى توجه إلى الحجاز الشريف في البحر، فأدرك الصيام بالمسجد الحرام.

وفي المرأة: وإنما ركب شيخ الشيوخ البحر من مصر ومضى إلى مكة لنذر كان عليه، وأقام إلى أيام الموسم وحج وعاد إلى بغداد.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر، صاحب الموصل، تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود، وهو والد سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر، وأقام في الملك عشر سنين وشهوراً، وأصابه مرض مزمن، وتوفي يوم الأحد ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وتولى بعده أخوه عز الدين مسعود.

وقال ابن كثير: وكان سيف الدين غازي شاباً حسناً مليح الشكل، تام القامة مدور اللحية، مكث في الملك عشر سنين ومات عن ثلاثين سنة وكان عفيفاً في نفسه مهيباً وقوراً لا يلتفت إذا ركب ولا إذا جلس، غيوراً لا يدع أحداً من الخدم يدخل على النساء، وكان لا يقدم على سفك الدماء، وينسب إلى شيء من البخل.

فأجلس مكانه في المملكة أخوه عز الدين مسعود، وجعل مجاهد الدين قياز نائبه ومدبر مملكته، وجاءت رسل الخليفة يلتمسون من صلاح أن يبقى سروج والرها والركة وحران والخابور ونصيبين بيده كما كانت في يد أخيه، فامتنع السلطان من ذلك، وقال: هذه البلاد هي حفظ ثغور الاسلام، وإنما كنت تركتها في يده ليساعدنا على غزو الافرنج، فلم يكن يفعل ذلك، وكتب إلى الخليفة يعرفه بذلك.

وفي تاريخ بيبس: وكان مرض غازي السل، وأراد أن يعهد بالملك إلى ابنه الأكبر معز الدين سنجر شاه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشرة سنة، فخاف من صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولم يجبه أخوه مسعود إلى ذلك، فأشار عليه أكابر دولته بأن يجعل الملك في أخيه عز الدين مسعود، وأن يجعل لولديه بعض البلاد، وأن يكون مرجعها إلى عز الدين عمهما، والمتولي لأمرهما مجاهد الدين قياز، ففعل ذلك، وأعطى جزيرة

ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، وقلعة الحميدية لولده الصغير ناصر الدين، وكان مجاهد الدين قياز الحاكم في الجميع.

وقال ابن الأثير: كان قد علق به سل، وطالت علته وأجدبت البلاد قبل موته، وخرج الناس يستسقون، وخرج سيف الدين معهم فاستغاث إليه الناس، وقالوا: كيف يستجاب لنا والخمور والخواطي والمظالم بيتنا، فقال: قد أبطلتها، ورجعوا إلى البلد وفيهم رجل صالح يقال له أبو الفرج الدقاق، فأهرق الخمور لغيره، ونهب العوام دكاكين الخمارين، فاستدعى الدقاق إلى القلعة وقال له: أنت جرأت العوام على السلطان وضرب على رأسه، فانكشف رأسه وأطلق بعد قليل: ونزل مكشوف الرأس، فقيل له غط رأسك، فقال: والله لا غطيته حتى ينتقم لي ممن ظلمني، فمات الدزدار والذي ضربه بعد قليل، ومرض سيف الدين وتوفي.

ذكر حكايته مع الشيخ أبي أحمد الحداد الزاهد:

كان أبو أحمد قد انقطع في قرية من بلد الموصل يقال لها الفضلية ومنها أصله، وهي على فراسخ من الموصل، قال السبط: حدثني أبو بكر القديمي واسماعيل الشعار، وكانا قد صحبا الشيخ أبا أحمد، قالاً: كان سيف الدين يزور الشيخ أبا أحمد، فقال له يوماً: ياسيف الدين أي فائدة في زيارتك وأنت تشرب الخمر وتبيح المحرمات، وتمكس المسلمين، فإن كنت تدع هذا وإلا فلا يجيء إلى عندي، فقال: ياسيدي أنا تائب إلى الله من جميع ماقلت وترك الجميع وعاد إلى ماكان عليه.

وكان للشيخ طاقة على باب الزاوية ينظر من يجيء من دمشق، قال: فبينما نحن عنده يوماً إذا بسيف الدين قد أقبل وصعد على الدرج، فقال: يا أبا بكر أغلق الباب في وجهه وقل له: عندي شغل وادفعه إلى أسفل الدرج، قال أبو بكر القديمي: فخرجت فاستحييت منه، فقال

لي سيف الدين: يا شيخ افعل بي ما أمرك الشيخ، وأدار ظهره إليّ، فدفعت في ظهره حتى أنزلته إلى أسفل الدرج فقعد يبكي وصاح الجند بأسرهم، فأشار إليهم أن اسكتوا، ثم قال لي: يا شيخ اصعد الى الشيخ وقل له: فما لي توبة؟ قال: فصعدت إليه وأخبرته، فقال: قل له يجوز قد أذنت له، قال: فخرجت وقلت له: بسم الله، فدخل على الشيخ فبكى وقبل يده وتاب إلى الله تعالى، وعاد إلى الموصل، وأقام مدة يسيرة ومات يوم الأحد ثالث صفر، ولم يبلغ ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً.

وأراد أن يعهد إلى ابنه سنجرشاه فامتنع أخوه عز الدين مسعود من ذلك، وقال له مجاهد الدين قياز وأكابر الأمراء: قد علمت استيلاء صلاح الدين على البلاد وقربه منا، وسنجرشاه صبي لا رأي له، وأخوك عز الدين كبير السن صاحب رأي وشجاعة فاعهد إليه واجعله وصياً على أولادك ففعل، وكانت الرعية قد خافت من عز الدين مسعود لاقدامه على سفك الدماء وحدثه، فلما ولي تغيرت اخلاقه، فصار رفيقاً بالرعية قريباً منهم محسناً إليهم، ولما مات سيف الدين كان صلاح الدين في حدود الروم فأرسل إليه مجاهد الدين قياز الفقيه أبا شجاع بن الدهان البغدادي، فطلب منه أن يكون مع عز الدين كما كان مع أخيه سيف الدين ويبقي عليه الجزيرة وما بيده من حران والرها والرقّة وخابور ونصيبين وقاطع الفرات، فقال صلاح الدين: أما ما خلف له من بلاد الموصل فهو باق على حاله، وأما ما ذكره من بلاد الجزيرة فإنها كانت بيده بشفاعة الخليفة على شرط أن يقوي ثغور المسلمين بالمال والعساكر، أما الآن فالخليفة قد فوض أمرها إليّ، لا أفعل إلا ما أراه من المصلحة.

الملك المعظم تورانشاه:

مات في هذه السنة.

قال ابن كثير: السلطان الأكبر، الملك المعظم شمس الدين تورانشاه ابن أيوب، الذي افتتح بلاد اليمن عن أمر أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فمكث فيها حيناً، واقتنى منها أموالاً جزيلة ثم استناب فيها، وأقبل نحو أخيه إلى الشام شوقاً إليه، وكان قدومه إليه في سنة إحدى وسبعين وخمسة كما ذكرنا، فشهد معه مواقف مشهودة وغزوات محمودة، واستنابه على دمشق مدة، ثم سار إلى مصر فاستنابه على اسكندرية، فلم توافقه وكان يعتريه القولنج فمات بها في هذه السنة فدفن فيها، ثم نقلته أخته ست الشام بنت أيوب فدفنته بتربتها التي بالشامية البرانية بدمشق، فقبره القبلي، والوسطاني قبر زوجها ابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، والمؤخر قبرها رحمها الله، والتربة الحسامية منسوبة إلى ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وهي إلى جانب المدرسة من غربيها.

وقد كان الملك تورانشاه كريماً جواداً ممدحاً شجاعاً بأسلاً عظيم الهبة كبير النفس، واسع الصدر، وقال فيه ابن سعدان الحلبي:
هو الملك إن تسمع بكسرى وقيصر
فإنهما في الجود والبأس عباده
وما حاتم ممن يقاس بمثله
فخذ ما رأيناه ودع ما روينا
ولذ بذراه مستجيراً فإنه
يجيرك من جور الزمان وعدواه

ولا تحمل للسحائب منة
إذا هطلت جودا سحائب جدواه
ويرسل كفيه بها اشتق منها
فلليمن يمناه وليس يسراه

ولما بلغ خبر موته إلى أخيه السلطان صلاح الدين وهو مخيم بظاهر
حمص، حزن حزناً شديداً عليه وجعل ينشد باب المراثي من الحماسة،
وكانت محفوظته.

وقال ابن خلكان: وكانت وفاة تورانشاه يوم الخميس مستهل صفر،
ويقال خامس صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة، وتورانشاه بضم التاء
المثناة من فوق، وسكون الواو، وبعدها راء مهملة ثم بعد الألف نون
ساكنة وبعدها شين معجمة وألف ساكنة وهاء، ومعناه ملك الشرق،
وشاه لفظ أعجمي ومعناه الملك، وتوران اسم بلاد الترك، والعجم
يسمون الترك تركمان، ثم حروفه فقالوا: توران، وقد علم أن المضاف إليه
يقدم على المضاف في لغتهم، فافهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة السابعة والسبعين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد
على حالهم، غير أن الملك الصالح بن نور الدين محمود مات في هذه
السنة.

ذكر وفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب،
والكلام فيه على أنواع:

الأول: في ترجمته.

هو السلطان الملك الصالح اسماعيل بن السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب حلب وماوايها، وكان أبوه نور الدين رحمه الله قد عهد بالملك له، وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة، وكان مولده في سنة ثمان وخمسين وخمسة، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام ولم يبق عليه سوى مدينة حلب.

الثاني: في سيرته.

قال ابن خلكان: كان محسناً محمود السيرة.

وقال النويري: وكان من أعف الملوك، ومن يشابه أباه فما ظلم. وصف له الأطباء في مرضه شرب الخمر، فاستفتى بعض الفقهاء في شربها تداوياً فأفتاه بذلك، فقال له: أيزيد شربها في أجلي، أو ينقص منه شيئاً؟ قال: لا، قال: فوالله لأشربها وألقى الله وقد شربت ما حرمه علي.

وفي تاريخ بيبرس: أفتاه بذلك فقيه من مدرسي الحنفية، فقال: أرايت إن قدر الله قرب الاجل، يؤخره شرب الخمر، فقال الفقيه: لا، فقال له ما ذكرنا.

وذكر ابن الأثير أنه لما اشتد به المرض وضعف، وصف له الأطباء قليل خمر، فقال: لأفعل حتى أسأل الشافعية فأفتوه بالجواز، وسأل العلاء الكاساني فأفتاه أيضاً، فلم يفعل.

وقال السبط: أخطأ الكاساني فإن الخمر لا يباح عند أبي حنيفة رضي الله عنه وجميع أصحابنا للتداوي، وكذا عند مالك وأحمد، وعند الشافعي يجوز للضرورة، وعندنا إن الله لم يجعل شفاء الأمة فيما حرم عليها.

وفي تاريخ المؤيد: وكان عفيف اليد والفرج واللسان ملازماً لامور الدين، لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب.

الثالث: في وفاته.

وقال ابن خلكان: وتوفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسائة، وذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة ودفن في المقام الذي بالقلعة، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة، وهو مشهور هناك.

وفي المرأة: وكان مرضه القولنج بدأ به في تاسع رجب

وقال المؤيد في تاريخه: في رجب توفي الملك الصالح وعمره تسع عشرة سنة، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الاطباء الخمر، فمات ولم يستعمله.

وفي تاريخ ابن كثير: وكانت وفاته بقلعة حلب ودفن بها، وكان سبب وفاته فيما قيل أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر سقاه سماً في عنقود عنب في الصيد، وقيل بل سقاه ياقوت الأستدي في شراب، وقيل في خشكناكة، فاعتراه قولنج، فما زال كذلك حتى مات وهو شاب حسن الصورة بهي المنظر، ولم يبلغ عشرين سنة، ولما يئس من نفسه استدعى الامراء فحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، لقوة سلطانه وتمكنه ليمنعها من صلاح الدين، وخشي أن يبايع لابن عمه الآخر عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وهو زوج أخته وتربية والده فلا يمكنه حفظها من صلاح الدين، فلما مات استدعى الحلبيون عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود صاحب الموصل، فجاء إليهم، فدخل حلب في أبهة عظيمة وكان يوماً مشهوداً، وذلك في العشرين من شعبان من هذه السنة، فتسلم خزائنها وحواصلها وما فيها من السلاح،

وكان تقي الدين عمر بمدينة منبج فهرب إلى حماة فوجد أهلها قد نادوا بشعار عز الدين صاحب الموصل، وأطمع الحلبيون عز الدين مسعود في أخذ دمشق لغية صلاح الدين بالديار المصرية، وأعلموه بمحبة أهل الشام لهذا البيت الأتابكي، وقال: بيننا وبينه أيمان وعهود، وأنا لا أغدر به، فأقام بحلب شهوراً، وتزوج بأُم الملك الصالح في شوال ثم سار إلى الرقة فنزلها وجاءته رسل أخيه عماد الدين يطلب منه أن يقاوضه من حلب إلى سنجار، وألح في ذلك، وتمنع أخوه ثم رضي على كره منه، فسلم إليه حلب، وسلمه عماد الدين سنجار والخابور والرقة وسروج وغير ذلك من البلاد، وعاد عز الدين مسعود إلى حلب، ولما سمع السلطان صلاح الدين بهذه الأمور ركب من الديار المصرية في عساكره، فسار حتى الفرات.

وفي تاريخ بيبرس: تسلم عماد الدين صاحب سنجار حلب عوضاً عن سنجار، وذلك أنه لما رحل عز الدين إلى الرقة جاءته رسل أخيه، عماد الدين يطلب أن تسلم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها سنجار فلم يجبه إلى ذلك فقال: إن لم تسلموا إليّ حلب، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين، فأشار الأمراء على عز الدين بتسليم حلب إليه، فاستقر الأمر على تسليمها إلى عماد الدين، وأخذ سنجار عوضاً عنها، وبلغ ذلك صلاح الدين فخاف على دمشق، وبرز من مصر وسار إلى الشام في محرم السنة الآتية على ما ذكره إنشاء الله تعالى.

ذكر بقية ماجريات صلاح الدين:

منها: أنه لما استهلكت هذه السنة كان صلاح الدين مقيماً بالقاهرة مواظباً على سماع الأحاديث، جاء كتاب من نائبه بالشام عز الدين فرخشاه يهنيه بما منّ الله تعالى به على الناس من كثرة ولادة النساء من التوائم جبراً لما كان أصابهم في العام الماضي من الوباء والفناء، وبأن

الشام مخصب بإذن الله جبراً من الله تعالى لما كان أصابهم في العام الماضي من الجذب والغلاء.

ومنها: أنه في شوال منها توجه صلاح الدين إلى الاسكندرية، وخيم بظاهرها عند عمود السواري، فشاهد ما أمر به من تحصين سورها وعمارة أبراجها وقصورها، وسمع موطأ الامام مالك رحمه الله على الشيخ أبي طاهر بن عوف عن الطرطوشي، وسمع ذلك معه العماد الكاتب، وأرسل القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين رسالة يهنيه بهذا السماع.

ومنها أنه ولد لصلاح الدين ولدان وهما الملك المعظم تورانشاه، والملك المحسن أحمد، وكان بين ميلادهما سبعة أيام، فزينت البلاد، واستمر الفرح والسرور.

وفي تاريخ الدولتين: الملك المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين، ولد بمصر في ربيع الأول من هذه السنة، وهو لأم الاشرف، والملك المعظم أبو منصور تورانشاه فخر الدين ولد بمصر في ربيع الأول من هذه السنة، ومات سنة ثمان وخمسين وستائة، وهي السنة التي أخرب العدو من التتار مدينة حلب وغيرها.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن الأفرنج غدرت ونقضت عهودها، وقطعت السبل على المسلمين برأً وبحراً، سراً وجهراً، فأمكن الله من بطسه عظيمة لهم فيها نحو ألفين وخمسمائة نفس من رجالهم المعدودين، منهم من ألقاهم الموج إلى ثغر دمياط، قبل خروج السلطان صلاح الدين من مصر، فأحيط بها فغرق بعضهم، وحصل في الاسر ألف وسبعمائة منهم.

ومنها أن فرخشاه ابن أخي السلطان صلاح الدين ونائبه بدمشق،

سار إلى أعمال الكرك ونهبها لما بلغه أن الفرنج تطرقوا لأن يسيروا إلى مكة وإلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فجمع العساكر الدمشقية، وسار إلى بلدهم ونهبه وخربه، وعاد إلى بلاد الاسلام، وأقام بها ليمنع البرنس من التعرض إلى المسلمين، وأما الذين سيرهم الفرنج إلى الحجاز، فأهلك الله تعالى جميع من سيروا، وقتلوا وأسروا.

ومنها أنه استوت عدة جيش صلاح الدين على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين طواشية وقراغلامية.

ومنها أن صاحب ماردين حصر قلعة البيرة وكانت لشهاب الدين الارتقي، وهو ابن عم قطب الدين ايلغازي بن ألبى بن تمرناش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي، فمات شهاب الدين الارتقي، وملك القلعة بعده ولده، وصار في طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلما كان في هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عز الدين مسعود يستأذنه في حصر البيرة، وأخذها فأذن له فسار فنزل شمشاط وكانت له، وأرسل عسكره إليها فحصرها، فسير صاحبها إلى صلاح الدين يطلب منه أن ينجده، فسير رسولا فشفع فيه فرحل صاحب ماردين عن البيرة.

ومنها أن المسلمين فتحوا الشقيف من الفرنج، وذلك أن الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل، واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلمهم يظفرون منه بفرصة، فخلت بلادهم من ناحية الشام، فسمع فرخشاه الخبر فجمع عساكر الشام، ثم قصد بلاد الفرنج وأغار عليها، ونهب دبورية ومايجاورها من القرى، وأسر الرجال، وسبى النساء وغنم الأموال، وفتح منهم الشقيف وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة.

ومنها أن البرنس صاحب الكرك لعنه الله عزم على قصد تيباء من أرض الحجاز ليتوصل منها إلى المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فجهزت له سرية من دمشق تكون حاضرة بين وبين أرض الحجاز، فصده ذلك عن قصده لعنه الله.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثامنة والسبعين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد على حالهم، والسلطان صلاح الدين خرج من مصر إلى الشام في خامس المحرم من هذه السنة، وكان ذلك آخر عهده بمصر لم يعد إليها بعد ذلك.

وفي تاريخ المؤيد: وفي خامس المحرم سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى الشام، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة، وخرجت أعيان الناس لوداعه، أخذ كل منهم يقول شيئاً في الوداع وفراقه وفي الحاضرين معلّم لبعض أولاد السلطان، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تمتع من شميم عرار نوجد
فما بعد العشيّة من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه، وتنكد المجلس على الحاضرين، فلم يعد صلاح الدين إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان وأغار في طريقه على بلاد الفرنج، وغنم ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر من هذه السنة.

وفي المراجعة: وفي خامس المحرم من هذه السنة خرج صلاح الدين من مصر، ونزل البركة قاصداً إلى الشام، وخرج أرباب الدولة لوداعه، وأنشد:

الشعراء أحياناً في الوداع، فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيم: تمتع... إلى آخره، وطلب القائل فلم يوجد، فوجم السلطان، ونظر الحاضرون فكان كما قال، اشتغل السلطان بالشرق والافرنج، ولم يعد بعدها إلى مصر، وسار السلطان على أيلة والحسا ووادي موسى، وكان فرخشاه بدمشق، فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا عند الكرك لقصد السلطان، فخرج من دمشق فنزل طبرية وعكا ودبورية، فقصدوه فالتقاهم وكسرههم وقتل منهم ألوفاً وأسر وساق عشرين ألفاً من الانعام وغيرها، وفتح حصناً مشرفاً على السواد على شقيف يقال له حصن جلدك، وقتل من فيه وأسكنه المسلمين وجعلهم طلائع وساق إلى بصرى فالتقى السلطان عندها فسر به، ودخلا دمشق في صفر.

وفي تاريخ ابن كثير: أغار صلاح الدين في طريقه على أطراف بلاد الفرنج بأرض الكرك، وجعل أخاه تاج الدين بوري بن أيوب على الميمنة يسير ناحية عنه ليتمكنوا من بلاد العدو، فالتقوا على الازرق بعد سبعة أيام، ووصل السلطان إلى دمشق في حادي عشر صفر منها، وقيل في سابع عشر.

ذكر ماجريات صلاح الدين من الغزوات وغيرها بعد دخوله دمشق:

منها أنه خرج من دمشق في العشر الأول من ربيع الأول، ونزل قرب طبرية، وشن الاغارة على بلاد الافرنج مثل بيسان وجنين والغور، فغنم منها، وقتل جماعة.

وقال ابن كثير: واقتتل مع الفرنج تحت حصن كوكب، فقتل خلق من الفريقين، ولكن كانت الدائرة للمسلمين، ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى دمشق، ثم سار إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها، ثم عاد إلى دمشق.

وفي تاريخ بيارس: وفيها سار صلاح الدين من دمشق إلى بيروت فحاصرها ونهب ما وجد، وأمر اسطول مصر أن ينزلوا عليها ويحاصروها، فكان وصوله لها قبل وصولهم، وكان عازماً على حصارها إلى أن يفتحها، وأتاه الخبر بأن بطسة عظيمة ألقتها البحر إلى دمياط خرج من فيها من الفرنج للحج إلى بيت المقدس، فأسروا من بها، فكان عدة الأسرى ألفاً وستمائة وستة وسبعون أسيراً فضربت بذلك البشائر.

ومنها أنه سار إلى البلاد الحلبية والجزرية ليأخذها، وذلك أن المواصل والحلبية قد كاتبوا الفرنج حتى يغزو على أطراف البلاد ليشغلوا السلطان صلاح الدين بنفسه عنهم، فكان سيره على بلاد البقاع ثم إلى حماه، ثم إلى حلب فحاصرها ثلاثاً، ورأى أن العدول إلى غيرها أولى به، فسار حتى قطع الفرات من البيرة، وصار معه مظفر الدين كوكبري صاحب حران، وكاتب ملوك تلك الأطراف، واستمالهم، فأجابه نور الدين محمد ابن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، وصار معه ونازل السلطان مدينة الرها وحاصرها وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوك بوري، ثم سار إلى الرقة وأخذها من قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، فسار هو إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل، ثم صار صلاح الدين إلى خابور، وملكها وملك أيضاً قرقيسيا وماكسين وعربان، واستولى على الخابور جميعها، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة، ثم ملك القلعة واقطعها أميراً كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبها مسعود ومجاهد الدين قيباز للحصار، فأقام عليها منجنيقا وأقاموا عليه من داخل المدينة مجانيق، وضايق الموصل، فلما رأى طول الحصار رحل عنها إلى سنجار وحاصرها وملكها واستتاب بها سعد الدين بن معين الدين، وكان من أكبر الأمراء، ثم سار صلاح الدين إلى حران وعزل عن نصيبين في طريقه أبا الهيجاء السمين، ثم عاد إلى حلب، وقد استحوذ على بلاد الجزيرة، وخضعت له

الملوك هناك، ولما وصل الى حلب تسلمها من صاحبها عماد الدين زنكي، وقد كان قايض أخاه عز الدين مسعود بها إلى سنجار، كما ذكرنا في العام الماضي، فاستوسقت الممالك شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، وتمكن حيثئذ من قتال أعدائه من الفرنج لعنهم الله، وتملكه حلب وغيرها إنما كان في السنة الآتية على ما ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي تاريخ بيبرس: عبر صلاح الدين الفرات وملك الديار الجزرية، وسبب ذلك أن مظفر الدين كوكبري ابن زين الدين علي بن بكتكين مقطع حران أرسل الى صلاح الدين يعلمه أنه معه وأنه محب لدولته، ووعدته النصر، وأنه إذا عبر الفرات يعينه ويعرفه أخذ البلاد، فرحل عن بيروت، ورسل مظفر الدين متواترة إليه تحثه على القدوم، فجد السير يظهر أنه يريد حصر حلب، ولما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين واجتمع به فقصد البيرة، وكان صاحبها مع صلاح الدين وفي طاعته، فعبر هو وأصحابه من الجسر الذي عند البيرة، وكان عز الدين مسعود ومجاهد الدين قايماز لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة لئلا يتعرض صلاح الدين إلى حلب، ثم تقدما إلى دارا، فنزلا عندها، فجاءهما أمر لم يكن في الحساب، فلما بلغهما عبوره الفرات عادا إلى الموصل، وأرسلا إلى الرها عسكرياً يحميها ويمنعها، فلما سمع صلاح الدين ذلك قوي طمعه في البلاد وكاتب الملوك أصحاب الاطراف ووعدهم، وبذل لهم البذول على نصرته، فأجابه نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا لقاعدة كانت بينهما لما كان عنده بالشام، فقصد آمد وحصرها وقتلها أشد القتال، وكان بها مقطوعا الأمير فخر الدين الزعفراني، فطلب الامان وسلم البلد، وصار في خدمة صلاح الدين، ولما ملك المدينة زحف إلى القلعة فسلمها إليه الدزدار الذي بها على مال أخذه، ولما ملكها صلاح الدين سلمها إلى مظفر الدين كوكبوري مع حران، ثم سار إلى الرقة وبها

مقطعها قطب الدين ينال المنبجي، فسار عنها إلى عز الدين مسعود وملكها صلاح الدين، وسار إلى الخابور وقرقيسياء وماكسين وعربان، فملك جميع ذلك، فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيين فملك المدينة لوقتها، وحصر القلعة أياماً فملكها وأقام بها ليصلح شأنها، ثم أقطعها أبا الهيجاء السمين، وسار عنها.

ومنها أنه لما ملك نصيين جمع أمرائه وأرباب المشورة فاستشارهم بأي البلاد يبدأ، بالموصل أو بسنجار، أو بجزيرة ابن عمر، فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين: لا ينبغي أن نبدأ بغير الموصل، فإنها في أيدينا لا مانع لها، وإن عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز متى سمعا بمسيرنا إليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية، ووافقه ناصر الدين محمد بن شيركوه، وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيراً ليقطعه الموصل: إذا ملكها، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، فأشار بهذا الرأي لما في نفسه.

وصار صلاح الدين إلى الموصل، وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا عسكرياً كثيراً من فارس وراجل وأظهرا من آلات الحصار ما حارت له الابصار، وبذلا الاموال الكثيرة وشحنا مابقي بأيديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار وغيرها بالرجل والسلاح والاموال، ولما قارب صلاح الدين الموصل ترك عسكريه وانفرد هو ومظفر الدين وناصر الدين ابن عمه ومعهم نفر من أعيان دولته، وقربوا من البلد، فرأى ما هاله من عظم البلد، ورأى السور قد ملء من الرجال، وليس فيه شرافة إلا وعليها مقاتل، سوى من عليه من عامة البلد، فعلم أنه لا يقدر عليه، وأنه متى نازله وعاد عنه انكسر ناموسه، ثم رجع الى معسكره وصبح البلد فتنازله وضايقه، ونزل محاذي باب كنده، وأنزل صاحب الحصن بباب الجسر، وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادي، وأنشب القتال فلم يظفر، وأقام أياماً، ولم ينل منها شيئاً،

وترددت الرسل إلى عز الدين مسعود ومجاهد الدين في الصلح، فطلب عز الدين إعادة البلاد التي أخذت منهم، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط تسليم حلب إليه، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين، ولم ينتظم صلح ولا تم أمر، فلما رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضاً، وإن من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصده من عساكره وأصحابه، سار عن الموصل إليها، وسنذكر ما جرى بعد ذلك في السنة الآتية إن شاء الله تعالى.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن البرنس صاحب الكرك عليه اللعنة عمل مراكب في بحر القلزم ليقطعوا الطريق على التجار والحجاج، وذلك لما عجز عن إيصال الأذى للمسلمين في البر، فوصلت أذيتهم إلى عيذاب، وخاف أهل المدينة النبوية من شرهم فأمر العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين نائب مصر الأمير حسام الدين لؤلؤ صاحب الاسطول أن يعمل مراكب في بحر القلزم لمحاربة البرنس، ففعل ذلك، فظفر بهم في كل موطن، وقتلوا منهم وحرقوا وغرقوا وسبوا وقهروا وأسروا في مواطن كثيرة ومواقف هائلة، وأمن البر والبحر بأذن الله، وأرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل أبي بكر يشكر من مساعيه، وأرسل إلى ديوان الخليفة بها أنعم الله به عليهم من الفتوحات براً وبحراً.

وفي المرأة: في هذه السنة كانت وقعة الحاجب لؤلؤ مع الفرنج، خرج ابرنس صاحب الكرك إلى أيلة فأقام بها ومعه الأخشاب على الجمال والصناع، فعمل المراكب، وكان قصده مكة والمدينة والغارات في البحر، فلما تم عملها ركب فيها، ووصل إلى عيذاب في بحر القلزم، فأخذ مراكب التجار ونهب وقتل وأسرى، وسار يريد جده، وبلغ الخبر إلى سيف الدين العادل أخي السلطان، فأمر حسام الدين الحاجب لؤلؤ، فركب في

بحر القلزم، وسار خلفهم، وساعده الريح فأدركهم وقد أشرفوا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وهرب بعضهم في البر، وأسر الباقين فأخذ مائة وسبعين أسيراً، وخلص أموال التجار، وردّها عليهم، واستولى على مراكبهم، وعاد الى القاهرة، وكتبوا الى صلاح الدين بذلك، فقال بضرب رقاب الاسرى بعضهم بالقاهرة، وبعضهم بمكة، وبعضهم بالمدينة، ففعلوا وكتبوا بذلك إلى الخليفة.

وفي تاريخ المؤيد: وكان حسام الدين لؤلؤ مظفراً فيه، شجاعاً فسار في طلبهم مجداً وأوقع بالدين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسروهم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة وسار يقفو أثرهم، فبلغ رابغ، فأدركهم بساحل الحوراء وتقاتلوا أشد القتال، فظفر الله بهم، وقتل لؤلؤ أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم الى منى لينحروا بها، وعاد بالباقيين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم.

ومنها أن عز الدين صاحب الموصل اجتمع هو وشاه أرمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين، وسبب ذلك أن رسل عز الدين ترددت إلى شاه أرمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين، فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة بالكف عن الموصل، وما يتعلق بعز الدين، فلم يجبه إلى ذلك وغالطه، فأرسل إليه أخيراً مملوكاً له يقال له سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعده، فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها، وقال له: إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربه فأبلغه بكتمر الشفاعة، فسوفه في الاجابة رجاء أن يفتحها، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان، ولم يقبل منه خلعة ولا صلة، وأبلغ صاحبه الخبر فسار إلى ماردين وصاحبها قطب الدين بن ألبى، وهو ابن أخت شاه أرمن وابن خال عز الدين وهو، وحضر صحبة شاه أرمن دولة شاه صاحب بدليس وأرزن، وسار

عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الاثقال، فلما سمع صلاح الدين باجتماعهم سيّر الى ابن اخيه تقي الدين، وهو بحماه يستدعيه، ورحل الى رأس عين، فلما سمعوا برحيله تفرقوا، فعاد شاه أرمن الى خلاط واعتذر بأنه يجمع العساكر ويعود، وعاد عز الدين الى الموصل، وأقام قطب الدين بماردين، وسار صلاح الدين فأقام تحت مـاردين مـأمن أيا مـأمن...

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة التاسعة والسبعين بعد الخمسةائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله العباسي، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في الشرق لاجل فتح البلاد التي ليست تحت يده.

ذكر فتوحات صلاح الدين رحمه الله في هذه السنة: منها فتح آمد:

قال ابن كثير: في الرابع عشر من محرم هذه السنة تسلم السلطان صلاح الدين مدينة آمد وحصنها بعد قتال وحصار شديد من يد صاحبها بعدما حمل ما أمكنه من حواصله وأمواله وأثقاله مدة ثلاثة أيام، ولما تسلم السلطان البلد وجد فيه شيئاً كثيراً من الحواصل والآلات الحرب والسلاح، حتى قيل إنه وجد برجاً مملوءاً بنصول النشاب، وبرجاً آخر فيه مائة ألف شمعة وأشياء يطول شرحها، ووجد فيها خزانة فيها ألف ألف مجلد وأربعون ألف مجلد فوهبها كلها للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين حماراً، ثم وهب السلطان البلد بما فيه لنور الدين محمد بن قرا أرسلان، وكان في خزانتها ثلاثة آلاف ألف دينار،

فامتدحه الشعراء على ذلك، وعلى حسن صنيعه الجميل، ومن أحسن ماقاله بعضهم في ذلك من جملة قصيدة له في السلطان:

قل للملوك تنحوا عن ممالككم
فقد أتى أخذ الدنيا ومعطيها

وفي المرأة: وفي يوم الأحد عاشر المحرم تسلم السلطان آمد ودخل إليها، وجلس في دار الامارة، ثم سلمها وأعمالها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان، وكان قد وعده بها لما جاء إلى خدمته، ولما أخذها صلاح الدين خرج الرئيس محمود بن علي ومحمد بن كيكلدي منها بأموالهما وحریمهما إلى الموصل، وأعانها صلاح الدين بدواب تنقل بعض قماشهما، فحملا ماخف حمله وعجزا عن حمل كثير من الذخائر والاسلحة.

وفي تاريخ المؤيد: في العشر الأول من محرم هذه السنة ملك صلاح الدين آمد بعد حصار وقتال وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان ابن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا.

وفي تاريخ ابن العميد: وفي سنة تسع وتسعين وخمسة سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين من مصر إلى الرها ففتحها، ثم سار إلى الموصل فنازلها واستشفع صاحبها عز الدين مسعود بن مودود من الخليفة الناصر لدين الله، فشفع فيه الخليفة فرحل صلاح الدين عن الموصل، ونزل على سنجار فحاصرها ثم سلمها وأحسن إلى رعيتهما، ثم توجه إلى حرزم فأخربها، ثم كتب إلى الخليفة يطلب منه آمد، فأجابه الخليفة وبعث إليه بتقليدها، فوصل إليه التقليد في ذي الحجة من هذه السنة، ثم سار السلطان إلى آمد فنازلها لثلاث بقين من ذي الحجة وفتحها بالامان في العشر الاول من محرم سنة ثمانين وخمسة وسلمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا.

ومنها فتح عيتاب:

ولما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار وقطع الفرات قاصدا حلب، واجتاز في طريقه بعيتاب وبها ناصح الدين محمد بن خمارتكين، فنزل إليه وقام بالضيافة، فأبقاها عليه.

وفي تاريخ المؤيد: لما فتح صلاح الدين آمد سار إلى الشام، وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها، ثم سار إلى عيتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد تسلم عيتاب من نور الدين، فبقيت معه إلى الآن، فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه، فأقره السلطان عليها وبقي في خدمة السلطان ومن جملة أمرائه، ثم سار السلطان إلى حلب.

ومنها فتح حلب:

ولما فرغ السلطان من أمر عيتاب سار إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود.

وقال ابن كثير: سار السلطان في بقية المحرم إلى مدينة حلب فنازلها وحصرها، وقتله أهلها قتلاً جيداً وجرح أخو السلطان تاج الملوك بوري ابن أيوب جرحاً بليغاً فمات منه بعد أيام، ثم اتفق الحال بين السلطان وبين صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن أقسنقر على عوض أطلقه السلطان وهو أن يرد عليه سنجار ويسلمه البلد، فخرج عماد الدين زنكي وجاء إلى خدمة السلطان وعزاه في أخيه ونزل عنده في المخيم، ونقل أثقاله إلى سنجار، وزاده السلطان خابور والركة ونصيبين وسروج، واشترط عليه ارسال العسكر في الخدمة للغزاة وودعه السلطان، وكان أهل حلب ينادون على عماد الدين زنكي: «يا حمار بعث حلب بسنجار»، وكان تسلم السلطان حلب في صفر، وصعد إلى قلعتها يوم

الاثنين السابع والعشرين من صفر، وعمل له الأمير طمان وليمة عظيمة. وكان يوماً مشهوداً، ثم إن السلطان رحمه الله أسقط عن حلب وعن سائر بلاد الجزيرة 'مكوس والضرائب، وكذلك عن بلاد الشام ومصر، ثم أرسل إلى سساكره ليجتمعوا إليه ليتصدى لقتال الفرنج الملاحين، لأنهم عاثوا في البلاد يمينا وشمالاً في غيبة السلطان واشتغاله ببلاد الجزيرة. وكان السلطان قد بشر بفتح بيت المقدس حين فتح حلب، وذلك أن الفقيه مجد الدين ابن جهبل الشافعي رأى في تفسير أبي الحكم المغربي عند قوله تعالى: ﴿ألم * غلبت الروم * في أدنى الأرض﴾ [الروم ١-٣] الآية، البشارة بفتح بيت المقدس في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، واستدل على ذلك بأشياء، فكتب في ورقة وأعطاهما للفقيه عيسى الهكاري ليبشر بها السلطان فلم يتجاسر على ذلك خوفاً من عدم المطابقة، فاعلم بذلك القاضي فخر الدين بن الزكي، فبظم معناها في قصيدة يقول فيها:

وفتحكم حلب الشهباء في صفر
قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

وقدمها للسلطان، فتشوقت همة السلطان إلى ذلك، فلما افتتحها - كما سيأتي إن شاء الله تعالى - أمر القاضي فخطب يومئذ، وكان يوم الجمعة، ولما بلغه ان ابن جهبل هو الذي اطلع على ذلك أولاً، أمره أن يدرس، فدرس على الصخرة درساً عظيماً وأجزل له العطاء، وأحسن عليه الثناء.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة سار صلاح الدين من تل خالد إلى حلب، واستدعى إليها العساكر من جميع الجهات، فاجتمع عليها خلق عظيم، وتحقق عماد الدين أنه ليس به قبل، فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر له مع صلاح الدين في إعادة بلاده إليه وتسلم حلب منه، فرفع الحديث، وتقررت القاعدة ولم يشعر أحد من العسكر ولا من الرعية حتى تم الامر واستفاض، فاستعلم العسكر من عماد الدين فأعلمهم

وأذن لهم في تيسير أنفسهم، فأرسلوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك وزين الدين بكتكين فاستحلفوا صلاح الدين على العسكر وعلى أهل البلد، وخرجت العساكر إلى خدمته بالميدان الأخضر فخلع عليهم، ونقل عماد الدين أقمشته وآلاته من القلعة، ثم نزل إلى السلطان، وسيره معه في الميدان، وأنزله عنده في الخيمة، وقدم له مقدمة سنية وخيلاً، وخلع على جماعة من أصحابه وسار من يومه إلى سنجار، وطلع صلاح الدين إلى القلعة وتسلمها في صفر من هذه السنة.

وفي المرأة: نازل صلاح الدين حلب في سادس عشر المحرم، ونزل بالميدان الأخضر، وباشر القتال بكرة وعشياً، وزحف يوماً أخوه تاج الملوك بوري فجاءه سهم في عينه، فوقع مريضاً، فمات في الثالث والعشرين من صفر، ثم علم عماد الدين زنكي، أنه لا طاقة له به، وقال لحسام الدين طمان: اخرج إلى صلاح الدين وسله في الصلح، فخرج سراً ولم يعلم به أحد، فقرر الصلح وأن يرد إليه سنجار وأعمالها والخابور ونصيبين، وأنه يسلم إليه قلعة حلب، وعلم الناس بالصلح فخرجوا إلى صلاح الدين فخلع عليهم، وجعل أهل حلب تحت القلعة اجانة وثياباً وصابوناً وصاحوا عماد الدين: يافاعل، ياصانع، انزل فاغسل الثياب مثل المخانيث، ما يصلح لك غير هذا، وعملوا فيه الاشعار، وغنوا بها في الاسواق، منها:

وبعت بسنجر خير القلاع
تكلتك من بائع مشتري

فلما كان اليوم الثالث والعشرون من صفر توفي تاج الملوك أخو السلطان، فحزن السلطان عليه حزناً عظيماً وجلس للعزاء، وكان يبكي ويقول: ماوفت حلب بشجرة من أخي، وقيل إنه قال: ماغلت حلب ببوري، والأول أليق بالسلطان لانه ماكان في البيت مثل بوري.

وسار عماد الدين إلى سنجار، وأقام السلطان بالمخيم غير مكترث

بحلب لما جرى عليه من وفاة أخيه، ثم صعد القلعة سلخ صفر، فأنشده
القاضي:

وفتحه حلب بالسيف في صفر
مبشر بفتوح القدس في رجب

فعجب الناس من رمية من غير رام، فكان كما قال، ولكن بعد أربع
سنين، وهو الذي خطب بالقدس لما فتحه السلطان، وولى السلطان
القضاء بحلب مجير الدين ابن زكي الدين، والقلعة سيف الدين أركش،
والديوان ناصح الدين اسماعيل بن العميد، فأعطى تل باشر وتل خالد
لبدر الدين دلدرد بن بهاء الدين بن ياروق، وأعطى قلعة أعزاز لعلم
الدين سليمان بن جندر، ثم رحل عن حلب يوم السبت الثاني والعشرين
من ربيع الآخر، ودخل دمشق ثالث جمادى الأولى.

وفي تاريخ المؤيد: ولما استقر الصلح بين صلاح الدين وعماد الدين،
عمل عماد الدين دعوة للسلطان واحتفل، فبينما هم في سرورهم إذ جاء
إنسان، فأسر إلى السلطان بموت أخيه بوري فوجد عليه في قلبه وجدا
عظيماً وأمر بتجهيزه، ولم يعلم السلطان في ذلك الوقت أحداً ممن كان في
الدعوة بذلك حتى لا يتكدر عليهم ما هم فيه، وكان يقول: ما وقعت
علينا حلب رخيصة بموت بوري، وكان هذا من السلطان من الصبر
العظيم.

ومنها: فتح حارم.

ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حارم وبها سرخك الذي ولاه الملك
الصالح بن نور الدين محمود في تسليم حارم، وجرت بينهما مراسلات
فلم ينتظم بينهما حال، وكاتب سرخك الفرنج، فوثب عليه أهل القلعة
وقبضوا عليه وسلموا حارم إلى السلطان، فتسلمها.

وفي تاريخ بيبرس: وكان السلطان: قد أنفذ إلى حارم من يتسلمها، فدافع الوالي الذي بها، فسار بنفسه إليها فتسلمها، وعاد إلى حلب، ورتب فيها ولده الظاهر غازي ومعه الأمير يازكوج، ثم رحل عنها وسار نحو دمشق.

وقال ابن كثير: رحل السلطان من حلب في أواخر ربيع الآخر بجيوشه وعساكره، وقد جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وولى قضاءها لمحبي الدين بن الزكي، فاستتاب له فيها نائباً، ورجع هو مع السلطان في خدمته، فاجتاز بحماه ثم بحمص، ثم على بعلبك، ثم دخل دمشق في ثالث جمادى الأولى في أبهة عظيمة، وفي نيته الخروج سريعاً إلى قتال الأفرنج.

ذكر ما فعل السلطان صلاح الدين بعد دخوله دمشق:

ولما دخل السلطان دمشق في التاريخ المذكور وأقام أياماً، برز منها في أول جمادى الآخرة في جحافل قاصداً نحو القدس الشريف، فأنتهى إلى بيسان فنهبها وخربها، وشن الاغارات على تلك النواحي، ثم سار ونزل على عين جالوت، وأرسل بين يديه سريه هائلة فيها الأمير جرديك النوري، وطائفة من النورية، وجاوي مملوك عمه أسد الدين شيركوه فوجدوا جيش الكرك من الفرنج قاصدين إلى أصحابهم نجدة لهم، فتوافقوا معهم فقتلوا من الأفرنج خلقاً كثيراً، وأسروا مائة أسير، ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد، ثم عادوا في آخر ذلك اليوم، وبلغ السلطان، وأن الأفرنج قد اجتمعوا للقتال، وتصدى لهم فنكلوا عنه، فقتل منهم خلقاً كثيراً من أطرافهم، وجرح مثلهم، فرجعوا ناكسين على أعقابهم خائفين منه غاية المخافة.

وفي تاريخ بيبرس: لما خرج السلطان من دمشق عبر نهر الأردن، ورأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً، فقصد بيسان فأخربها، وأغار على

ما هناك، فاجتمع الفرنج وجاءوا إلى قتاله، فلما رأوا كثرة من معه من العسكر لم يقدموا عليه، فأقام عليهم، وأحاطت بهم عساكره ترميهم بالسهم وتناوشهم القتال، فلم يخرجوا، وأغار المسلمون على تلك الاعمال، ونالوا منها ما لم يكونوا يطمعون فيه من الغنائم والنهب وعادوا فأعطاهم دستورا ليستريحوا، ودخل دمشق فأقام بها إلى شهر رجب من هذه السنة.

وفي المرأة: لما وصل السلطان من دمشق إلى بيسان هرب أهلها، فقدم بين يديه جرديك النوري وجاوي الاسدي، وجماعة من النورية، فجاءوا إلى عين جالوت والفرنج على الفولة، فصادفوا على عين جالوت طائفة من الافرنج، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا مائة فارس، ورحل السلطان إلى الفولة يطلب المصاف فتحصن الفرنج بالراجل، ولم يخرج منهم أحد، فلما كان في الليل ساروا طالين عكا، ورحل السلطان خلفهم يقاتل الساقة، فقتل منهم جماعة، فدخلوا عكا، وعاد السلطان على جينين فنهب وأحرق وعاد إلى دمشق.

ذكر مسير السلطان إلى الكرك:

وفي رجب من هذه السنة سار السلطان إلى الكرك فحاصرها، وفي صحبتته تقي الدين عمر بن أخيه، وقد كتب إلى أخيه الملك العادل أبي بكر ليحضر إليه ليوليه حلب وأعمالها، وفق ما كان طلبه منه، فحضر العادل إليه، واستمر الحصار على الكرك مدة شهر رجب، فلم يظفر منها بطلب، وبلغه أن الافرنج كلهم اجتمعوا ليمنعوا منه الكرك، فكر راجعاً إلى دمشق في منتصف شعبان، وسار معه أخوه العادل، وأرسل ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر إلى مصر نائباً عنه، وفي صحبتته القاضي الفاضل، ووصل السلطان إلى دمشق، وبعث أخاه العادل على مملكة حلب وأعمالها، واستقدم ولده الملك الظاهر إليه، وكذلك نوابه ومن

يعز عليه، وإنما أعطى السلطان صلاح الدين أخاه العادل حلب ليكون قريباً منه، فإنه كان لا يقطع أمراً دون مشورته، واقترض السلطان صلاح الدين من أخيه العادل مائة ألف دينار، وتآلم الظاهر على مفارقة حلب، وكانت إقامته في حلب ستة أشهر، ولكنه لا يظهر ما في نفسه، ولكن يظهر ذلك على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

وفي تاريخ بيارس: لما توجه صلاح الدين إلى الكرك استدعى أخاه العادل أبا بكر من مصر، وكان قد أرسل إليه يطلب منه مدينة حلب وقلعتها، فأجابه إلى ذلك وأمره أن يخرج معه بأهله وماله فوافاه إلى الكرك في العسكر المصري، فكثر جمعه، وحصر الحصن من الرض، ونصب عليه المجانيق، ثم رحل عنه، وعاد إلى دمشق واستصحب أخاه العادل معه، وسير ابن أخيه تقي الدين إلى مصر نائباً عنه، وأعطى أخاه العادل حلب وقلعتها وأعمالها وسيره إليها، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

ذكر بقية الحوادث:

منها أن عز الدين مسعود صاحب الموصل قبض على نائبه مجاهد الدين قايازا، وكان إليه الحكم في جميع البلاد، وكان الذي أشار عليه بذلك عز الدين محمود وشرف الدين ابن أبي الخير، وهما من أكابر أمرائه، لهوى بنفسيهما، ولما أراد القبض لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين، فأظهر أنه مريض، وانقطع عن الركوب عدة أيام، فدخل إليه مجاهد الدين وحده، وكان لا يمنع من الدخول عليه ولا على النساء، فلما دخل عليه قبض عليه وركب لوقته إلى القلعة واحتوى على الأموال التي لمجاهد الدين وخزائنه، وولى عز الدين محمود القلعة، وجعل ابن صاحب الغراف أمير حاجب، وكان تحت مجاهد الدين إربل وأعمالها ومعه فيها يوسف بن زين الدين علي وهو صبي صغير ليس له من الحكم شيء، والحكيم والعسكر إلى مجاهد الدين وتحت حكمه أيضاً

جزيرة ابن عمر، وهي لمعز الدين سنجرشاه بن غازي بن مودود، وهو أيضاً صبي صغير، ويده أيضاً شهرزور وأعمالها ونوابه فيها، ودقوا وبها نائبه، وقلعة عقر الحميدية، ونائبه فيها، ولم يكن بقي لعز الدين صاحب الموصل بعد أن أخذ صلاح الدين البلاد الجزرية سوى الموصل، وكانت قلعتها بيد مجاهد الدين، وهو على الحقيقة الملك، فلما قبض عليه عز الدين امتنع صاحب إربل والجزيرة من طاعته، وأرسل الخليفة إلى دقوا من حاصرها وأخذها، ولم يحصل لعز الدين مسعود مما كان بيد مجاهد الدين قايماز غير شهرزور، وصارت إربل وجزيرة ابن عمر أضر شيء على صاحب الموصل، وأرسل صاحبها إلى صلاح الدين بالطاعة له والكون في خدمته، وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سير صدر الدين شيخ الشيوخ، ومعه بشير الخادم إلى صلاح الدين في الصلح مع عز الدين صاحب الموصل، فأجاب صلاح الدين إلى الصلح على أن تكون إربل والجزيرة معه، ويقرر الصلح، وإنما قوى طمع صلاح الدين في الموصل لقبض صاحبها على مجاهد الدين، فلما تبين لعز الدين مسعود الضرر الذي ترتب على امساك المجاهد قايماز أمسك الذين أشاروا عليه باعتقاله وأفرج عنه في الاعتقال، ثم رحل صلاح الدين عن الموصل، ونازل سنجار على مذكرناه عن قريب.

ومنها أنه سار اسطول من مصر في البحر فلقوا بطسة فيها نحو من ثلاثمائة من الفرنج، نجدة لفرنج الساحل فقاتلوهم فظفر بهم المسلمون وأخذوهم أسرى، فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضهم أسرى وغنموا ما معهم، وعادوا إلى مصر سالمين.

ومنها أنه سارت جماعة كبيرة من الفرنج من نواحي الداروم إلى نواحي مصر ليغيروا وينهبوا، فسمع بهم المسلمون فخرجوا إليهم على طريق صدر وأيلة، فأفرج الفرنج من بين أيديهم على ماء يقال له العيلة، وسبقوا المسلمين إليه، فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على

الهلاك، فأروا الفرنج قد ملكوا الماء، فأنشأ الله سحابة عظيمة بلطفه، فمطروا منها حتى رواء، وكان الزمان قيظاً والحر شديداً وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلوهم، ولم يسلم منهم الا الشريد، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله ورحمته.....

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير شاه أرمن:

اسمه سقمان بن ظهير الدين بن ابراهيم بن سقمان القطبي، صاحب اخلاط، توفي في هذه السنة، وعمره أربع وستون سنة، وكان ملكه لها في سنة احدى وعشرين وخمسةائة، وكان بكنتم مملوك أبيه بميا فارقين لما مات شاه أرمن، فلما سمع بموته سار من ميافارقين، ووصل الى اخلاط، وكان أكثر أهلها يريدونه، وكان ممالك شاه أرمن متفقين معه، فأول وصوله استولى على اخلاط وملكها، وجلس على كرسي شاه أرمن، واستقر في ملكه حتى قتل في سنة تسع وثمانين وخمسةائة، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

تاج الملوك بوري بن أيوب:

أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكنيته أبو سعيد، ولد في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسةائة، وكان الله تعالى قد جمع فيه مكارم الاخلاق، ولطف طباع، وكرماً وشجاعة وفضلاً وفصاحة، وكان أديبا شاعراً مترسلاً، وله ديوان شعر، ذكره العماد في الخريدة وأثنى عليه...

وتوفي يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر من هذه السنة على مدينة حلب من جراحة أصابته لما حصرها أخوه السلطان صلاح الدين

يوسف كما ذكرناه، وعمره ثلاث وعشرون سنة - بوري بضم الباء الموحدة وسكون الواو، وكسر الراء، وفي آخره ياء ساكنة، وهو اسم للذئب بلغة الترك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، وأصحاب البلاد على حالهم، غير أن صاحب ماردين وصاحب الغرب ماتا في هذه السنة.

ذكر وفاه صاحب ماردين:

وهو قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين ألبى بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين كان جواداً شجاعاً عادلاً منصفاً عاقلاً، توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان والده ألبى قد ملك في سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وبقي في ملك ماردين الى مدة لم نقف على انتهائها، وملك بعده ابنه ايلغازي المذكور، واستمر فيها إلى أن مات في هذه السنة، وخلف أولاداً أطفالاً، فأقيم في الملك بعده ولده حسام الدين بولق أرسلان، وقام بتدبير المملكة وتربيها مملوك والده نظام الدين البقش حتى كبر بولق أرسلان وكان به هوج وخبط، فمات وأقام البقش بعده أخاه الأصغر ناصر الدين أرتق أرسلان بن ايلغازي، ولم يكن له حكم، بل الحكم إلى البقش وإلى مملوك للبقش اسمه لؤلؤ، وكان قد تغلب على استاذة البقش بحيث كان لا يخرج البقش عن رأي لؤلؤ المذكور، ولم يكن لناصر الدين أرتق أرسلان صاحب ماردين من الحكم شيء، وبقي الأمر كذلك إلى سنة إحدى وستمائة، فمرض البقش، وأتاه ناصر الدين يعوده، فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ فضربه ناصر الدين بسكين فقتله، ثم عاد إلى البقش فقتله وهو مريض، واستقل ناصر الدين أرتق أرسلان بملك ماردين من غير منازع.

وفي تاريخ بيبرس: لما مات قطب الدين ايلغازي، ملك بعده ابنه حسام الدين بولق أرسلان، وهو طفل وقام بتربيته وتدريب ملكه نظام الدين البقش مملوك أبيه، وكان شاه أرمن صاحب خلاط، خال قطب الدين، فحكم في دولته وأحسن البقش تربية الولد، وتزوج بأمه، فلما كبر الولد لم يمكنه البقش من المملكة لانه كان أهوج، ولم يزل كذلك إلى أن مات الولد المذكور، وكان له أخ صغير أصغر منه اسمه قطب الدين، فرتبه البقش مكانه، والله أعلم.

ذكر غزوة صلاح الدين يوسف الكرك مرة أخرى ثانية:

وذلك لانه رأى ان فتحها الآن أنفع للمسلمين فإن الفرنج الذين فيها يقطعون الطريق على الحجاج والتجار في البراري والبحار، فأرسل إلى العساكر الحلبية والجزرية والمصرية، فقدم تقي عمر من مصر، وكان بها كما ذكرنا ومعه القاضي الفاضل وجاء من حلب الملك العادل أبوبكر أخوه، وقدم ملوك الجزيرة وسنجار وتلك النواحي والاقطار، وأخذهم كلهم في جيشه، فسار بهم إلى الكرك فأحرقوا بها في رابع عشر جمادى الاولى من هذه السنة، وركب عليها المجانيق، وكانت تسعة، وأخذ في حصارها، وضيق على أهلها، واشتد القتال، فملك المسلمون الربض، وبقي الحصن وله خندق عمقه ستون ذراعاً، فألقى فيه الأحجار والابخشاب والاتربة، ورأى الفرنج شدة القتال وعرفوا عجزهم عن حفظ الحصن، فأرسلوا إلى ملكهم وفرسانهم يستنجدونهم، فاجتمعوا من كل مكان، فلما بلغ صلاح الدين خبر مسيرهم رحل عن الكرك إلى طريقهم ليقاتلهم، ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك، فقرب منهم ولم يمكنه الدنو منهم لضيق الأرض وصعوبتها، وانتظر خروجهم من ذلك المكان، فلم يخرجوا، فرحل وسار إلى مدينة نابلس، ونهب كل ما على طريقه من البلاد، فلما وصل إلى نابلس أحرقها وأخربها، وقتل وأسر

وسبى وسار إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام، وكان فيها جماعة أسرى من المسلمين فاستنقذهم، وكان بها الاقساء والرهبان وعندهم الاسرى والودائع، فطلبوا الامان فأمنهم على أن يطلقوا من عندهم من الاسرى، ثم سلك الغور وطلع على عقبة فيق، وعاد إلى دمشق.

وفي بيبرس: لما فرغ من سبسطية رحل إلى جنين فنهبها، وعاد إلى دمشق وبث سراياه يمينا وشمالا يغنمون ويخربون

وفي تاريخ ابن كثير: لما كان صلاح الدين على الكرك بلغه أن الافرنج قد اجتمعوا له كلهم فارسهم وراجلهم ليمنعوا منه الكرك، فانشمر عنها وقصدهم ونزل على حسي تجاههم، ثم صار الى ماعير فانهمزمت الفرنج قاصدين الى الكرك، فأرسل وراءهم من قتل منهم مقتلة عظيمة، وأمر السلطان الجيوش بالاغارة على السواحل لخلوها من المقاتلة فنهبوا نابلس وماحولها من القرايا والرساتيق، ثم عاد السلطان الى دمشق، وأذن للعساكر بالانصراف إلى بلدانهم، وأمر ابن أخيه تقي الدين عمر الملك المظفر أن يعود إلى مصر بعسكره، وكذلك امر لآخيه العادل ان يعود الى حلب، وأقام السلطان بدمشق ليؤدي فرض الصيام.

وقدمت على السلطان خلع الخليفة فلبسها وألبس أخاه الملك العادل وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ثم خلع السلطان خلعة على نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، وخرتبرت، وآمد، التي اطلقها له السلطان.

وفي المرأة: وكان عند صلاح الدين رسل الخليفة شيخ الشيوخ عبد الرحيم، وبشير الخادم، وكانا مريضين فطلبا العود الى بغداد فاذن لهما، فمات بشير بالسحنة وشيخ الشيوخ بالرحبة.

وذكر في النوادر السلطانية أن دخول السلطان صلاح الدين إلى دمشق كان يوم السبت سابع جمادى الآخرة من سنة ثمانين وخمسمائة، وفي هذا الشهر وصل رسل الخليفة ومعهم الخلع، وفيه أيضاً وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخاً إلى السلطان يخبرون أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قايباز، وأنهم نهبوا وأحرقوا، وأنه نصر عليهم وكسرهم.

ذكر بقية الحوادث:

منها أنه وقع الصلح بين صلاح الدين وصاحب طرابلس، وذلك قبل مسيره إلى الكرك.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الحادية والثمانين بعد المائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان صلاح الدين نخيم بظاهر حماة، وكان بلغه في أواخر السنة الماضية أن صاحب الموصل نازل إربل، فبعث صاحبها يستصرخ بالسلطان، فركب من فوره إليه في جنوده وعساكره، فسار إلى بعلبك، ثم حمص ثم حماة، فأقام بها أياماً، ثم سار إلى حلب، وتلقاه أخوه العادل، واجتعت إليه العساكر، فخرج منها في صفر لقصد الموصل، فقطع الفرات من البيرة، وجاء إلى حران فقبض على صاحبها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين صاحب إربل، وكان وصول السلطان إلى حران في الثاني والعشرين من صفر، وكان أمر لسيف الدين المشطوب أن يسير في مقدمة العسكر إلى رأس عين، وكان قبضه على صاحب حران في السادس والعشرين من صفر وذلك لشيء كان جرى منه، وحيث كان

بلغه عنه رسوله، فأنكر عليه، وأخذ منه قلعة حران والرها ثم اعتقله تأديبا له إلى مستهل ربيع الاول، ثم أخرجه وخلع عليه وطيب قلبه، وأعاد عليه قلعة حران وبلادته التي كانت بيده، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعد بها.

وفي تاريخ ابن العميد: وكان صاحب حران مظفر الدين قد بذل خطه بخمسين ألف دينار يوم وصول السلطان إلى حران، فلم ير السلطان لذلك أثراً، فغضب عليه واعتقله، ثم سار السلطان من حران في ثاني ربيع الاول إلى رأس عين ووصل إليه في ذلك اليوم رسول قليج أرسلان صاحب الروم يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل وماردين، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك، فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصلها يوم السبت الثامن من ربيع الاول، وجاء إليه عماد الدين بن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردین، فالتقاهم السلطان وأكرمهم.

وقال ابن كثير: فتلقاه الملوك من كل ناحية، وجاء إليه عماد الدين أبوبكر بن قرا أرسلان صاحب بلاد بكر وأمد، ثم بلغه موت أخيه ابن قرا أرسلان، فطلب دستوراً ليأخذ مملكته فأعطاه، ثم سار السلطان فنزل على الاسماعيليات قريباً من الموصل، وذلك يوم الثلاثاء الحادي عشر من ربيع الاول، وكان يصل من العسكر كل يوم نوبة جزيلة تحاصر الموصل، وجاء إليه هناك صاحب إربل زين الدين، وأرسل السلطان ضياء الدين ابن كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة يعلمه بما عزم عليه من حصار الموصل، وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الامام ونصرة الاسلام.

ثم سار السلطان ونزل على الموصل، وهو نزوله الثاني عليها، فحاصرها، وكان القتال يعمل كل يوم ويخرج المواصله اليه عراة يقاتلون،

وأرسل عز الدين مسعود صاحب الموصل والدته وابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء الاتابكيات وجماعة معهن يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم خائبين، واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين، لاسيما وفيهن بنت نور الدين، وضيق على أهل الموصل، فأشاروا عليه بقصد أخلاط، لما رأوا أنه لا طمع لهم في الموصل، وقالوا: ماتفت الموصل، فسار إلى أخلاط، وفي مقدمته ناصر الدين محمد وتقي الدين عمر، فوصلوا ميا فارقين وبها يرتقش مملوك صاحب آمد، فامتنع عليهم وقال: أنا وصي يتامى أستاذي قطب الدين، وبعد هذا فالأمر للخاتون والدتهم، فأرسل إليها صلاح الدين خادما ووعدا أن يتزوجها ويزوج ابنه احدى بناتها، فأجابت وسلمت إليه ميا فارقين، وأعطاهما الهتاخ، وأعطى يرتقش جبل جور، وكان الحاكم على خلاط الوزير مجد الدين ابن الموفق وهو الذي كاتب السلطان، فبعث إليه الفقيه عيسى ليكشف الحال، فغالط وقال: في القلعة سيف الدين بكتمر، وبها ابنة البهلوان زوجة شاه أرمن، وربما جاء البهلوان، فعاد الفقيه إلى السلطان بغير شيء، وجاء البهلوان بعساكر اذريجان وهمدان، فنزل قريبا من اخلاط، وأرسل إلى السلطان يقول: هذه البلاد لابتي وهي في القلعة، والمصلحة ان تبقى المودة بيننا ودوام الصداقة، فرجع السلطان إلى الجزيرة، ورجع البهلوان إلى بلاده بعد ان حمل إليه سيف الدين بكتمر أموالا وهدايا، وولى السلطان على ميا فارقين وديار بكر مملوكه سنقر الخلاطي، وعاد إلى الموصل، وهذه المرة الثالثة، وهي الاخيرة، فنزل الاسماعيليات، وقيل نزل على كفر زمار بدجلة، وكان الحر شديداً، فأقام مدة، وعزم على أن يشتي بذلك المكان، وفي هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة، واستعد المواصله للحصار، ومرض السلطان مرضاً شديداً خيف من غائلته، فرحل طالباً وهو مريض، وكان يتجلد، ولم يركب في محفة، فوصل حران وهو شديد المرض، وبلغ غاية الضعف حتى أيس منه، وأرجف بموته، وكان رحيله من كفر زمار في مستهل شوال من هذه السنة فوصل إليه أخوه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها.

وفي المرأة: ولما كان السلطان على كفر زمار أشار أمراء عز الدين مسعود عليه بأن يخرج إليه الاتابكيات يشفعن إليه فخرجن ومعهن والدة عز الدين مسعود فأكرمهن ووعدهن الاحسان وقرر عماد الدين الصلح، وخطب للسلطان بالموصل، وأعطى عز الدين شهرزور والبوازيج، ووقف عليها قرية تعرف بياقلا، ورحل عن الموصل يريد الجزيرة.

وقال العماد الكاتب: وكان السلطان قد لازم قراءة القرآن في شهر رمضان، واشتد الحر فمرض مرضاً شديداً فتناثر شعر رأسه ولحيته، وقيل إنه سقي، وضعف ضعفاً خيف عليه منه، وأرجف بموته، وأقام على نصيبين وقد أيسنا منه، ثم حمل في محفة إلى حران، فنزل في ظاهرها، وبني داراً سماها دار العافية.

وفي تاريخ النويري: وجاءت رسل صاحب الموصل إلى السلطان وهو بحران بالاجابة إلى ماطلب. وهو أن يسلم صاحب الموصل الى السلطان شهرزور وأعمالها وولاية القراميلي وجميع ماوراء الزاب، وأن يخطب للسلطان على جميع منابر الموصل ومايبده، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير، ورضي السلطان بذلك، وتقرر الصلح، وأمنت البلاد، ثم رحل السلطان من حران وقد عوفي وعاد إلى دمشق في السنة الآتية.

وقال ابن كثير: ولما استقر الصلح بين صلاح الدين وبين المواصله - كما ذكرنا - انقطعت خطبة السلاجقة والارتقية بتلك البلاد كلها.

قال: ولما جاء إليه أخوه العادل من حلب، ورآه في غاية الضعف أشار عليه بأن يوصي ويعهد، فقال: ما أبالي وأنا أترك من بعدي: أبا بكر، وعمراً وعلياً وعثماناً، وأراد بأبي بكر أخاه العادل صاحب حلب، وأراد بعمر تقي الدين عمر صاحب حماة، وهو إذ ذاك صاحب مصر

وبها مقيم، وأراد بعثمان وعلي ابنيه الملك العزيز عثمان والملك الافضل علي، ونذر السلطان في ضعفه لئن شفاه الله تعالى من مرضه هذا ليصرفن همته كلها إلى قتال الكفار، ولا يقاتل بعد ذلك مسلماً، وليجعلن اكبر همته فتح بيت المقدس ولو صرف في سبيل ذلك جميع ما يملكه من الاموال والذخائر وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده، وذلك لانه تقض العهد الذي عاهد السلطان عليه، فغد بقافله نجار من مصر فأخذ أموالهم وضرب رقابهم بين يديه صبراً، وهو يقول: أين محمدكم ينصركم، وكان هذا النذر كله باشارة القاضي الفاضل، ثم إن الله عز وجل بكرمه وفضله عافاه مما كان ابتلاه به، فسارت البشائر بذلك في كل ناحية، ودقت البشائر وزينت.

قال ابن كثير: ثم ركب السلطان من حران بعد العافية، فدخل حلب، ثم اجتاز بحماه وحمص حتى دخل دمشق، وكان دخوله حلب يوم الاحد الرابع عشر من المحرم سنة اثنتين وثمانين، وكان يوماً مشهوداً لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشر نحو دمشق، فلقاه أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بتل السلطان، ومعه أخته، ومعه خدمة عظيمة، ومنّ عليه بحمص موضع والده بحكم وفاته، ثم سار إلى دمشق فدخلها في الثاني من ربيع الاول من سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، وكان يوماً مشهوداً وصباحاً محموداً.

وفيهما كان المنجمون بدمشق قد حكموا بأن يهب هواء مزعج برمل يهلك الناس، فحفروا أسراباً واختفوا فيها، فظهر كذب المنجمين.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الامير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه

صاحب حمص والرحبة، وهو ابن عم السلطان صلاح الدين، وزوج أخته ست الشام بنت أيوب، توفي بحمص، ثم نقلته زوجته ست الشام الى تربتها بالمدرسة الشامية البرانية، فقبره هو الاوسط بينها وبين أخيها الملك المعظم تورانشاه، صاحب اليمن، وقد خلف ناصر الدين محمد من الاموال والذخائر شيئاً كثيراً ينيف على الف الف دينار، وكانت وفاته يوم عرفة فجأة.

وقال النويري: وفي هذه السنة، ليلة عيد الاضحى، شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي فأصبح ميتاً، قيل إن السلطان دس عليه من سقاه سماً لما بلغه مكاتبتة أهل دمشق في مرضه، ولما مات أبقى السلطان حمص وماكان بيد محمد على ولده شيركوه بن محمد بن شيركوه، وعمره اثنتي عشرة سنة، وخلف ناصر الدين محمد شيئاً كثيراً من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عودته من حران، وأخذ أكثرها، ولم يترك الا مالا خير فيه.

وفي المرأة: وكان السلطان صلاح الدين يخافه، لانه كان يدعي أنه أحق بالملك منه، وكان بلغ السلطان عنه هذا، وكان قد فارق السلطان من حران وجاء إلى حمص، وتوفي يوم عرفة بقي يتناثر لحمه، وقيل انه سم، وقيل مات فجأة.

نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود :

صاحب حصن كيفا وآمد، مات في هذه السنة، وملك بعده ولده

سقمان، ولقبه قطب الدين، وكان صغيراً، فقام بتدبير دولته وزيه القوام ابن سباق الاسعدي.

وفي تاريخ بيارس: مات نور الدين محمد المذكور، لما كان صلاح الدين محاصراً للموصل، وخلف ولدين، ملك الأكبر منهما واسمه سقمان، ولقبه قطب الدين، فلما بلغ أخاه وفاته سار ليملك بلاده فتعذر عليه أمرها، فسار إلى خربت فملكها، وهي بيد أولاده، ورجع صلاح الدين إلى ميفارقين، فحضر إليه ولد نور الدين فأقره على ملك أبيه، ومن جملة أمد، وكانوا خافوا أن يأخذها منهم فلم يفعل، وردهم إلى بلادهم وشرط عليهم أن يكونوا تحت أمره وطاعته، وجعل معهم من جهته أميراً لقبه صلاح الدين من أصحاب والده.

الأمير الكبير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر

وكان من الأمراء الكبار أيام نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف، كما ذكرنا، توفي في دمشق في جمادى الآخرة من هذه السنة، من جرح أصابه وهو في حصار ميفارقين.

الست خاتون عصمة الدين بنت معين أنر:

نائب دمشق وأتابك عساكرها قبل نور الدين محمود - كما تقدم - وقد كانت زوجة نور الدين - كما تقدم - ثم خلف عليها من بعده صلاح الدين في سنة ثلاث وسبعين وخمسة، توفيت في هذه السنة، وكانت من أحسن النساء وأعفهن، وأكثرهن صدقة، وهي واقفة الخاتونية الجوانية في محلة حجر الذهب، وخانقاه خاتون ظاهر باب النصر في أول الشرف القبلي على بانياس، ودفنت بتربتها في سفح قاسيون قريبا من قبيات الشركسية، ولها أوقاف كثيرة، فأما الخاتونية البرانية التي هي على

القنوات محلة صنعاء الشام، ويعرف ذلك المكان الذي هي به بتل الثعالب، فهي من انشاء الست زمرد خاتون بنت جاولي، وهي أخت الملك دقاق لأمه، وكانت زوجة زنكي ونور الدين صاحب حلب، وقد ماتت قبل هذا الحين كما تقدم.

وفي المرأة: ولها صدقات كثيرة وبر عظيم، بنت بدمشق مدرسة لاصحاب ابي حنيفة رضي الله عنه في حجر الذهب، قرية من حمام ازكش، وتعرف بمدرسة خاتون، وكانت وفاتها في رجب، وبلغ السلطان صلاح الدين وفاتها، وهو مريض بحران، فتزايد مرضه وحزن عليها وتأسف، وكان يصدر عن رأيها.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثانية والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب مصر والشام وغيرهما، وكان قد تعافى من مرضه، ووجد نشاطاً، ورحل من البلاد الفراتية ووصل الى حلب يوم الاحد الرابع عشر من محرم هذه السنة، وكان يوماً مشهود الشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام فيها أربعة أياما ثم رحل في ثامن عشر من محرم نحو دمشق، فلقه أسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه بتل السلطان ومعه أخته، ومعه هدية هائلة، ومن عليه بحمص، فأقام أياما يعتبر تركة أبيه، وكان قد خلف أموالا عظيمة وجواهر ومناطق الذهب والفضة، فكان مبلغ التركة ألف ألف دينار، وكان القاضي نجم الدين ابن عصرون حاضر القسمة . فقام يوماً فوقعت من تحت ذيله منطقة مجوهره، فنسبه العادل إلى ما لا يليق به، وكان نجم الدين منزها عن ذلك لانه كان غنياً جواداً، شريف النفس، فحلف للعادل انني ما علمت بها وصدق، وإنما الحساد وجدوا طريقاً للقول، ثم سار يطلب جهة دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الاول، وكان يوماً لم ير مثله فرحاً وسروراً، ثم قرر في ملك دمشق ولده الافضل علياً، ونزل العادل أبو بكر عن حلب لصهره زوج ابنته، الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين، وأرسل السلطان أخاه العادل صحبة ولده عماد الدين عثمان، الملقب بالملك العزيز على ملك مصر، ويكون العادل أتابكه، وله اقطاعات عظيمة جداً، وعزل عن نيابتها تقي الدين عمر، فعزم عمر على الدخول إلى بلاد إفريقية، فلم يزل السلطان يكاتبه ويتلاطف به، ويتفرق له حتى أقبل بجنوده نحوه، فأكرمه وأقطعه حماة وبلاداً كثيرة معها، وقد كانت له قبل ذلك بسنين، وزاده على ذلك مدينة ميفارقين.

وقال النويري: ولما بعث السلطان ولده الملك العزيز صحبة العادل الى مصر، استدعى تقي الدين من مصر بسبب أن السلطان تجنى عليه في الباطن، فإنه ظن أنه أخرج ولده من مصر ليملك مصر إذا مات السلطان، وقيل إنه توقف عن الحضور، وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولي على بعض بلاد إفريقية وبرقة من المغرب، وبلغ السلطان ذلك فنهاه، وأرسل يستدعيه ويلاطفه، فحضر إليه، ولما حضر إليه زاده على حماه منبج، ومعرة النعمان، وكفر طاب، وميفارقين، وجبل جور بجميع أعمالها، واستقر الملك العادل أبو بكر، والملك العزيز عثمان بمصر، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرها.

وفي تاريخ بيبرس: سير السلطان صلاح الدين الى ابن أخيه تقي الدين عمر يستدعيه من مصر إلى الشام والسبب في ذلك أن صلاح الدين لما استنابه بمصر ضم إليه ولده الافضل، وكان أكبر ولده، فخاف صلاح الدين في مرضه أن يتولى تقي الدين البلاد، ولا يجلس ولده الافضل، فأرسل في طلبه لهذا السبب، وأشار عليه بعض أمرائه أن يعزل العادل من حلب، ف وقعت هذه الإشارة من نفسه موقعاً موافقاً لغرضه، فلما حضر أخوه العادل إليه، أوصى صلاح الدين ولده الظاهر غازي أن يلتمس من عمه حلب ليهبها له، فسأله ذلك، فأجابه عمه العادل لوقته وكتب له بها، فتسلمها واستقر بها وأولاده من بعده، وكان تقي الدين يومئذ بمصر فبلغه ان صلاح الدين يريد عزله عنها، فأراد أن يهرب إلى المغرب، فإن قراقوش فتح بالمغرب مدناً كثيرة فأشار عليه أمراء مصر أن لا يروح إلى المغرب، وأن يمضي إلى عمه ويستعطفه، فتجهز وخرج من مصر، وسير صلاح الدين ولده العزيز صحبة عمه العادل الى مصر، ورتب ولده الظاهر غازي بحلب عوضاً عن عمه العادل، ولما وصل تقي الدين الى صلاح الدين أنعم عليه بميفارقين.

وفي النوادر السلطانية: ولما تقرر الامر المذكور بين هؤلاء الملوك، قال العادل: اجتمعت بالملك العزيز والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للملك العزيز: اعلم يامولاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم ان المفسدين كثير، ولا تخلو غدا ممن يقول عني مالا يجوز، ويخوفك مني فإن كان لك عزم تسمع فقل إلي حتى لأجيء، فقال: لا أسمع، وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملك الظاهر: أنا أعرف أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين، وأنا مالي الا أنت، وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدري من جانبه، فقال مبارك، وذكر كل خير.

وفي النوادر أيضاً أن الملك الظاهر سار إلى حلب حتى أتى إلى العين المباركة، وسير في خدمته شحنة حسام الدين بشاره، وواليا عيسى بن بلاشو، فنزل في يوم الجمعة بعين المباركة، وخرج الناس إلى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الآخرة من هذه السنة، وصعد القلعة المحروسة ضحوة النهار، وفرح الناس به فرحاً شديداً.

وأما تقي الدين فإنه لما وصل، سار السلطان إلى لقائه، فلقيه بمرج الصفر في ثالث عشرين شعبان من هذه السنة وأعطاه حماة، وسار إليها.

وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتم ذلك ودخل بها يوم الاربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الافضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين في شوال من هذه السنة.

وفيها حضر القمص صاحب طرابلس إلى الملك الناصر صلاح الدين، واتفق معه ان يفتح له جميع الساحل، وأطلق له الملك الناصر جميع الاسرى والذين كانوا عنده، وجرد معه عسكرياً إلى الساحل، وفتح

الطريق من مصر إلى الشام، وسار فيها التجار، ثم إن القمص (٢٠) المذكور نافق وأخذ قافلة من التجار، ودخل بلاد الفرنج، فحلف الملك الناصر لئن ظفر به ليقتلنه بيده، وكان ذلك سبب فتوح الساحل.

وفيهما كانت فتنة بين التركمان والاكراد ببلاد الجزيرة، والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وأذربيجان، وقتل فيها من الخلق مالا يحصى ودامت عدة سنين، وانقطعت الطرق، ونهبت الاموال واريقت الدماء، ثم إن مجاهد الدين قايماز نائب صاحب الموصل جمع عنده رؤساء الاكراد والتركمان وأصلح بينهم، وخلع عليهم، وانقطعت الفتنة العظيمة.

وفيهما دخل سيف الاسلام الى مكة ومنع من الاذان بحى على خير العمل، وقتل جماعة من العبيد كانوا يؤذون الناس، وأغلق أمير مكة باب البيت، وصعد إلى أبي قبيس، فأرسل إليه وطلب المفتاح من صاحب مكة، فأبى من انفاذه فقال سيف الاسلام لرسوله: قل لصاحبك: إن الله نهانا عن أشياء فارتكبناهما، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تأخذوا المفتاح، من بيت شيبه، فنأخذه ونستغفر الله تعالى، فبعث إليه المفتاح.

وفيهما قسم السلطان صلاح الدين البلاد بين أولاده وأهله برأي القاضي الفاضل، فإنه لما مرض أشاروا عليه بذلك.

وفيهما ظهر الخلاف بين الافرنج، وتفرقت كلمتهم، وكان ذلك سببا لسعادة الاسلام.

وفيهما غدر ابرنس الكرك واسمه ارناط، وكان أخبث الافرنج، وأشرهم، فقطع الطريق على قافلة جاءت من مصر إلى الشام، وفيها خلق عظيم ومال كثير، فاستولى على الجميع قتلا وأسرأ ونهبأ، فأرسل اليه

السلطان يوبخه على ما فعل ويقول: أين العهود والمواثيق، رد ما أخذت، فلم يلتفت وشن الغارات على المسلمين وفتك فيهم، فنذر السلطان دمه، وأقام السلطان بدمشق مجهز للقاء العدو، واستدعى العساكر من المشرق والمغرب.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الثالثة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلّت هذه السنة وكان أولها يوم السبت، وكان يوم النيروز، وذلك أول سنة الفرس، واتفق أنه أول سنة الروم أيضاً، وهذا اليوم الذي نزلت فيه الشمس برج الحمل، وكذلك كان القمر في برج الحمل أيضاً.
قال ابن الاثير: وهذا شيء يبعد وقوع مثله.

ذكر غزوات السلطان صلاح الدين وفتوحاته:

كان السلطان رحمه الله قد جمع عساكره في آخر السنة الماضية، ولما استهلّت هذه السنة التي أولها يوم السبت برز السلطان من دمشق في هذا اليوم، وقيل برز في أثناء الشهر، أعني محرم هذه السنة فسار إلى رأس الماء، فنزل ولده الافضل هناك في طائفة من الجيش، وتقدم السلطان ببقية الجيش الى بصرى، ثم خيم على قصر أبي سلامة ينتظر قدوم الحجاج وفيهم أخته ست الشام وابنها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ليسلموا من معرة ابرنس الكرك.

وفي تاريخ بيبرس: وفي هذه السنة تقدم أمر صلاح الدين إلى جميع البلاد بأن يحضروا للغزاة في سبيل الله، فحضر من الجند عسكر الموصل وعسكر ديار بكر، مقدمهم الامير زين الدين صاحب حران، وعسكر الشام مقدمهم ابن دلدرد، وعسكر مصر وحلب وغيره، وخرج من

دمشق وقصد الكرك، كما نذكر عن قريب، انشاء الله تعالى.

وفي المرأة: خرج السلطان من دمشق غرة المحرم بعساكر الشام، ونزل بصرى یرتقب وصول الحاج، وقد كان بلغه ان ابرنس الكرك یرتقب وصولهم، فخاف من غدره، ووصل الحاج في اواخر المحرم، وخلا سر السلطان منهم فسار الى الكرك على ما ذكره.

وذكر صاحب النوادر السلطانية: لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة عزم صلاح الدين على قصد الكرك، فسير الى حلب من يستحضر العسكر وبرز من دمشق في منتصف المحرم، فسار حتى نزل بأرض بصرى منتظراً لاجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارة على ما في طريقهم من بلاد الساحلية ففعلوا ذلك، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر الشتوي، ووصل معهم بيت الملك المظفر، وما كان له بالديار المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالهم بالفرنجة، بأرض انطاكية وبلاد ابن ليون، وذلك أنه كان قد مات ملك الافرنجة الى لعنة الله ووصى لابن أخته بالملك، وكان الملك المظفر بحماة، وبلغ الخبر السلطان، فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد نائرتهم، وكان وصول تقي الدين الى حلب في السابع والعشرين من محرم هذه السنة، فنزل في دار عفيف الدين بن زريق، وأقام بها الى ثالث صفر، ثم انتقل الى دار طمان.

وفي تاسع صفر سار الملك المظفر بعسكر حلب الى حارم وأقام بها ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل، وعاد السلطان الى الشام، وكان وصوله الى السواد في خامس عشر ربيع الاول من هذه السنة.

وفي يوم الخميس سابع عشر نزل بعشرا ولقيه ولده الملك الافضل، ومظفر الدين وجميع العساكر، ومن منتصف ربيع الآخر عرض السلطان

العساكر على تل يعرف بتل تسييل، وتقدم الى ارباب الميمنة بحفظ موضعهم الى اصحاب الميسرة كذلك، والى اصحاب القلب بمثله، ثم ذكر صاحب هذا التاريخ وقعة حطين، ولم يذكر ماجرى قبل هذه الواقعة من الامور، ونحن نذكرها مفصلة بعون الله ولطفه.

ذكر محاصرة الكرك:

لما قدم الحاج في أواخر صفر، نزل السلطان على الكرك، وقطع ماحوله من الاشجار، ورعى الزروع، وأكلوا الثمار، وجاءته العساكر المصرية، فتلقاهم بالقريتين، واجتمع عنده خلق كثير من العرب والترك والكرد وغيرهم، وكذلك فعل بشوبك مافعل بالكرك من المضايقة والمحاصرة واذهاب ضياء تلك الضياع، وازالة نقاء تلك البقاع، وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين والملك الافضل ولده مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العسكر.

وتوافت الجيوش الشرقية، فنزلوا عند الافضل، وقعدوا ينتظرون الاشارة من السلطان.

ذكر بعث الافضل الى اعمال طبرية سريته:

ثم ان الملك الافضل بعث سريته نحو أعمال طبرية وأمرهم بالغارة على حين غره، وجعل مقدمهم مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك، وجعل على عسكر دمشق قاياز النجمي، وعلى عسكر حلب دلدردم الياروقي، فساروا وصبحوا صفورية، فخرج إليهم الفرنج في جمع عظيم من الداوية والاسبطارية وغيرهما، فوقع حرب عظيم، وكاد المسلمون أن ينهزموا وينفلوا، فثبت قاياز النجمي في صدورهم وكذلك مظفر الدين وحمل عليهم من ناحيته ودلدردم من ناحيته، فقتلوا وغنموا وأسروا وسبوا

ورجعوا سالمين غانمين، وجاء الخبر، بالفتح والظفر للسلطان صلاح الدين وهو بالكرك، وكان هذا مقدمة الفتح.

وفي تاريخ بيبرس: ندب السلطان ولده الافضل للغارة على عكا والسواحل، وسير صحبته مظفر الدين كوكبري، فلما وصلوا صفورية التقوا الفرنج، ووقع القتال، فهزم الله عز وجل الافرنج، وقتلوا منهم جماعة كثيرة، منهم مقدم الاستبارية، وأسر الباقون وسيرت البشائر الى البلاد، ولما انتهى الخبر إلى السلطان رجع عن الكرك ولحق بالعسكر الذي مع ولده الافضل، وقد تلاحت إليه العساكر والتجندات.

وفي المرآة: كان السلطان صلاح الدين قد أمر ولده الافضل عند مسيره الى الكرك أن ينزل على رأس الماء بطائفة من العسكر ينتظر باقي العساكر الشرقية، فأنهض الافضل منهم طائفة للغارة على طبرية، وجعل مقدم العساكر الشرقية مظفر الدين، وعلى عسكر الشام صارم الدين قاياز النجمي، فنزلوا طبرية وتقدم بدر الدين دلدريم مقدم عسكر حلب الى طبرية، فخرج إليه مقدم الداوية والاستبارية ومعهم جماعة فقاتلوهم فقتلهم دلدريم وأسر بعضهم، وسار إلى صفورية ففعل كذلك، وعاد بالأسارى الى الافضل وهو على شعب الشهاب، وجاء السلطان الى تسيل - قرية غربي نوى - وصعد على تلها وعرض العساكر، وسر بما رأى، واندفع يوم الجمعة الرابع والعشرين من ربيع الاول نحو فيق، ورحل الافضل بالعساكر معه فالتقوا على الاقحوانة، وكان يقصد المسير الى العدو يوم الجمعة تبركاً بأدعية الخطباء، وخيم على ساحل البحيرة في اثني عشر الفاً من الفرسان، وأما الرجالة فيقال إنهم كانوا في ثمانين الفا مابين فارس وراجل، فنزلوا صفورية، وتقدم السلطان الى طبرية.

ذكر محاصرة طبرية وفتحها:

لما تقدم السلطان الى طبرية نصب عليها المجانيق، ونقب أسوارها، ففتحها يوم الخميس الرابع عشر من ربيع الآخر، وتمنعت القلعة عليه وبها زوجة القومص، وتقدم الفرنج فنزلوا لوبية يوم الجمعة عند طلوع الشمس، وملك المسلمون عليهم الماء، وكان يوماً حاراً، والتهب الغور عليهم، وأضرم مظفر الدين النار في الزرع، وباتوا طول الليل والمسلمون حولهم، فلما طلع الفجر يوم السبت قاتلوا الى الظهر، ثم صعدوا الى تل حطين على ما نذكر الآن وقعة حطين.

وقال ابن كثير: لما سار السلطان الى طبرية فتحها، وقد كانت طبرية تقاسم بلاد حوران والبلقاء وماحولها من الجولان وتلك الاراضي كلها بالنصف، فراح الله المسلمين من تلك المقاسم، وتوفرت عليهم.

وقال العماد: وكانت الست صاحبة طبرية قد حمتها ونقلت إليها كل ماملكته وحوته، فلما جاء إليها السلطان أمنها على أصحابها وأموالها، وخرجت بنسائها ورجالها وسارت الست إلى طرابلس بلد زوجها القومص بياها وحالها، وعادت طبرية أهلة آمنة بأهل الايمان، ثم عين السلطان لولايتها صارم الدين قايباز النجمي، وهو من أعيان الامراء.

وقال ابن كثير: ولما اجتمع السلطان بولده الافضل، خيم على عشترا، وسمع الفرنج بذلك فاجتمعوا كلهم وتصالخوا فيما بينهم، ودخل بينهم قومص صاحب طرابلس، ونقض العهد، وبرنس الكرك في جمع عظيم قيل كانوا خمسين ألفاً، وقيل ثلاثاً وستين ألفاً، وقد خوفهم القومص بأس المسلمين، فاعترض عليه برنس الكرك فقال له: لاشك أنك تحب المسلمين وتخوفنا من كثرتهم، والنار لا تخاف من كثرة الخطب، فقال القومص لهم: ما أنا إلا واحد منكم وسترون غب ما أقول لكم، وكانت

طبرية للقومص، وكان قد هادن السلطان، ودخل في طاعته كما ذكرنا، فأرسلت الفرنج إليه القسوس والبطريق ينهونه عن موافقة السلطان.

وأصل ملك القومص طبرية أنه كان لطبرية ملك يقال له أماري بن فلك، هلك في آخر سنة تسع وستين وخمسمائة وخلف ولداً مجذوماً قد سقطت أعضاؤه، فوضع الفرنج التاج على رأسه ورضوا به مع عييه حتى لا يخرج الملك من بينهم، فبقي بينهم زهاء عشر سنين ملكاً مطاعاً، فلما حس بهلاكه أحضر البطريق والقسوس وأكابر دولته وكان له ابن أخت صغير، وقال لهم: يكون هذا ملكاً، ولكن القومص أراد أن يستبد بالملك فلم يوافقوه الداوية، وقالوا: يلزمك العمل بشروط الوصية وتكفل بالأمر وهو مغلوب في مقاومة السلطان ومحاربتة ليتقوى بذلك على الملك، فاشتد أمره إلى أن مات الصغير، فانتقل الملك منه إلى أمه، وبطل ما كان في نية القومص من استبداده بالملك، فانتقل الملك إليها، واجتمع الفرنج عليها، فقالت لهم: زوجي أقدر على الملك وهو أحق به، وأخذت التاج من رأسها فوضعتة على رأسه، ثم إن الملك الكبير طالب القومص بحساب ماتولاه، فاستنصر القومص عليه بالسلطان صلاح الدين فهادنه وتقرب منه، ثم لما اجتمعت العساكر الإسلامية من الشامية والمصرية والجزرية جاء الملك إلى القومص بنفسه، وقبح له رأيه في مهادنته مع السلطان، ورجعه عن ذلك حتى اتفقت الافرنج كلهم على المسلمين.

ذكر وقعة حطين:

ولما اجتمع الفرنج للتعلي السلطان فارسهم وراجلهم وساروا إلى السلطان ركب السلطان من عند طبرية، وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر والتقى الجمعان، واشتد القتال، ولما رأى القومص شدة الأمر حمل على من قدامه من المسلمين، وكان هناك تقي الدين صاحب حماة، فأفرج له، وعطف عليهم، فنجوا القومص ووصل إلى

طرابلس، وبقي مدة، ومات غماً لعنه الله، وأخذ المسلمون الفرنج من كل ناحية، وأبادوهم قتلاً وأسرًا، وكان في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير، والبرنس أرناط صاحب الكرك، وصاحب جبيل، وابن الهنفرى، ومقدم الداوية وجماعة من الاستتارية، وما أصيب الفرنج من حين خرجوا الى الشام في سنة احدى وتسعين وأربعمئة الى الآن مصيبة مثل هذه الواقعة، وهي الواقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس.

وقال ابن الاثير: وكان في جملة الاسارى جميع ملوكهم سوى القومص صاحب طرابلس فإنه انهزم في أول الواقعة، وأخذ صليبيهم الاعظم عندهم، وهو الذي يزعمون أنه هو الذي صلب عليه المصلوب، وقد غلفوه بالذهب، ورصعوه باللآلي والجواهر النفيسة ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ [الفرقان ٢٦].

وقال ابن واصل: ذكر العماد أن السلطان الملك الناصر خلص في هذه النوبة ثلاثين ألف أسير من المسلمين، وأسر من الكفار مائة ألف أسير، وكان يوماً عظيماً حتى أنه ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم وهو يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيراً بنعل لبسها في رجله.

وفي المرأة: ولما فتح الله للمسلمين ونصرهم على الافرنج، جيء الى السلطان بصليب الصليبوت وهو مرصع بالجواهر واليواقيت في غلاف من ذهب، وهو عند النصارى مثل المسيح، والذي أسر الملك درباس الكردي، والذي أسر ابرنس ابراهيم غلام المهراي، فلما رآهم السلطان نزل وسجد شكراً لله تعالى، وجاء إلى خيمته فاستدعاهم فجلس الملك عن يمينه، وابرنس الكرك الى جانب الملك، ونظر السلطان الى الملك وهو يلهث عطشاً، فأمر له بقدر من ثلج وماء فشربه وسقى الابرنس،

فقال السلطان: ماأذنت لك بسقيه فلم سقيته؟ وكان السلطان قد نذر أن يقتل الابرنس بيده، فقال له: ياملعون ياغدار، خلعت وغدرت ونكثت، وجعل يعدد عليه غدراته، ثم قام إليه فضربه بالسيف حل كتفه، وتقدم الممالك وقطعوا رأسه، وأطعموا جثته الكلاب، فلما رآه الملك قتيلاً خاف وطار عقله، فأمنه السلطان وقال: هذا غدار كذاب، غدر غير مرة.

وقال ابن كثير: ولما تمت الواقعة أمر السلطان بضرب نخيم عظيم، وجلس فيه على سرير المملكة، وعن يمينه أسرة وعن يساره مثلها، وجيء بالأسارى يسحبون في قيودهم، فضربت أعناقهم وفيهم جماعة من مقدمي الداوية والاستتارية، بين يديه صبراً، ولم يترك فيهم من كان يذكر الناس عنه شراً، ثم جيء بالملوك فأجلسوا عن يمينه ويساره على مراتبهم، فأجلس ملكهم الكبير عن يمينه وبجانبه أرناط برنس الكرك وبقية الملوك عن يساره، فجيء السلطان بشارب من الجلاب مثلوج فشرب ثم ناول الملك فشرب، ثم ناول أرناط فشرب، فغضب السلطان وقال: أنا سقيتك ولم آمرك أن تسقيه، هذا لاعهد له عندي، ثم تحول السلطان إلى خيمة داخل الخيمة، واستدعى أرناط، فلما وقف بين يديه قام إليه بالسيف، وقال: أنا أنوب عن رسول الله صلى الله عليه، ثم دعاه الى الاسلام فامتنع فقتله.

وقال العماد: قام السلطان فضرب عنقه بيده.

قلت: إنما فعل ذلك بيده، إقامة لنذره الذي نذر حين مرض^(٢١) كما ذكرناه.

ثم قتل السلطان جميع من كان في الاسرى من الداوية والاستتارية صبراً، وأراح الله المسلمين من هذين الجنسيتين النجسين، ولم يسلم ممن

عرض عليه الاسلام منهم الا القليل، فيقال إنه بلغ القتلى ثلاثين ألفاً وكذلك الاسرى كانوا ثلاثين ألفاً، وكان جيش الافرنج ثلاثة وستين ألفاً، ومن سلم منهم مع قتلهم أكثرهم جرحى، فماتوا ببلادهم بعد رجوعهم، ثم أرسل برؤوس الاسرى ورأس أعيان القتلى، وبصليب الصليبوت صحبة القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق ليودعوا في قلعتها، فدخل بالصليب منكوساً بين يدي القاضي إلى دمشق، وكان يوماً مشهوداً.

وذكر في النوادر ماملخصه أن صلاح الدين اندفع قاصداً نحو بلاد العدو في وسط نهار الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر من هذه السنة، وكان بلغه أنهم اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا، فقصده نحو المصاف معهم، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل، وكان نزوله يوم الاربعاء الحادي والعشرين من ربيع الآخر، ولما رآهم لايتحركون نزل جريدة على طبرية وترك الاطلاب على حالها قبالة وجه العدو، وزحف على طبرية فأخذها في ساعة من النهار، ثم التقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في آخر الخميس الثاني والعشرين من ربيع الآخر، وحال الليل بين الفريقين فتبايتا على مصاف شاكين في السلاح إلى صبيحة الجمعة الثالث والعشرون منه، فركب العسكران وتصادما وذلك بأرض تسمى اللوية، فحال الليل بينهما أيضاً، ولما كان صباح السبت الرابع والعشرين منه ووقع القتال، نصر الله المسلمين بعونه ولطفه، فلم ينج منهم واحد، واعتصمت طائفة أخرى بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عند قبر شعيب عليه السلام، ثم ذكر ماذكرنا، ثم قال: ولما كان يوم الاحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر نزل السلطان على طبرية وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

ذكر فتح عكا:

وفيهما لغتان المدّ والنسبة إليها عكاوي، وعكة بالهاء، ولما فرغ السلطان من أمر طبرية سار إلى عكا، فنزل عليها يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر، ففتحها صلحاً يوم الجمعة، وأخذ ماكان بها من حواصل وأموال وذخائر ومتاجر، واستنقذ من كان بها من المسلمين، فوجدوا بها أربعة آلاف أسير منهم، ففرج الله عنهم، وأمر بإقامة الجمعة بعكا، فكانت أول جمعة أقيمت بالساحل بعد أن أخذه الفرنج من نحو تسعين سنة.

وقال العماد الكاتب: وكان السلطان جعل للفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري كل مايتعلق بالداوية، من منازل وضياع فأخذها بها فيها من غلات ومتاع، ووهب عكا لولده الافضل، وقال: ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الاولى فأقمنا بها الجمعة، وأعدنا الكنيسة العظمى جامعاً، وخطب جمال الدين عبد اللطيف ابن الشيخ أبي النجيب الشهرزوري، فإنه تولى بها القضاء والخطبة.

وفي المرأة: نازل السلطان صلاح الدين عكا يوم الاربعاء سلخ ربيع الآخر وليس بها من يحميها، لأن وقعة حطين أبادتهم، وكانوا ثلاثين ألفاً، فطلبوا منه الامان على نفوسهم ومايقدرّون على حمله فأمنهم فدخلها يوم الجمعة غرة جمادى الاولى وغنم المسلمون أموالاً لا تحصى، ولما دخلوا عكا ركز كل واحد رمحاً على دار فأخذها وما فيها، ولم يحضر بهذه الفتوح العادل سيف الدين أخو السلطان، وكان بمصر، فجاء ففتح في طريقه مجدل يابا، ويافا على ماذكره، وحضر الملك العزيزلانه قدم مع العسكر المصري، ومضى إلى مصر وماعاد اجتمع بأبيه وفارق أباه في شعبان والسلطان على صور.

وكتب العماد الكاتب إلى بغداد كتاباً أوله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الانبياء ١٠٥] والحمد لله على انجاز هذا الوعد وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد، وجعل من ﴿بعد عسر يسراً﴾ [الطلاق ٧] وأحدث بعد أمر أمراً وهو الأمر الذي ماكان الاسلام يستطيع عليه صبراً، وخوطف الدين بقوله: ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ [طه ٣٧] فأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، والآخرى في هذه الدولة التي عتق فيها من رق الكآبة، والزمان لهيبته قد استدار، والحق ببهجته قد استنار، والكفر قد ردّ ما عنده في استعار، والخادم شرح في هذا الفتح العظيم والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ويسوء وجوه الكافرين ويورد من البشرى ما أنعم الله من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر سلخه، وتلك ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ [الحاقة ٧] عدموا فيها نفوساً وجسوماً، فأصبحوا قد هووا في الهاوية ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ [الحاقة ٦٩] وأصبحت البلاد إلى الاسلام ضاحكة، كما كانت بالكفر باكية، ففي يوم الخميس فتحت طبرية، ويوم الجمعة والسبت كانت الكسرة التي ماأبقت منهم بقية لايقوم لهم بعدها قائمة ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ [هود ١٠٢] وهي أم البلاد، وأخت ﴿إرم ذات العماد﴾ [الفجر ٧] إلى غير ذلك من الكلمات.

ذكر فتح مجدل يابا:

ثم إن السلطان رحمه الله أرسل أخاه الملك العادل فنازل مجدل يابا وفتحه عنوة بالسيف.

وقال ابن كثير: وجاء العادل إلى السلطان بعد وقعة حطين، وفتح عكا، ففتح بنفسه حصوناً كثيرة.

وقال العماد الكاتب: ولما فتح السلطان مدينة عكا، أقام ببابها خيماً، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمماً، وقد كان كتب إلى أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر، وهو بمصر، بما فتح الله له، فوصلت البشرى بوصول العادل باشراً، وللواء الحمد ناشراً، وأنه فتح حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، واغتنمها غزوة

ثم إن السلطان فرق أمراءه إلى فتح البلاد، ففتح كل واحد منهم حصناً أو قلعة على ما ذكره الآن إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح الناصرة وصفورية:

أرسل السلطان مظفر الدين كوكبوري إلى الناصرة وصفورية ومعه حسام الدين طمان، فاستباح حماهما واستبى دماءهما ففتحهما، وغنم ما فيهما من الأموال والذخائر، وجاء إلى السلطان والأسارى بين يديه مقرنين في الاصفاد ومقادين في الاقياد.

وفي تاريخ المؤيد: وفرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة، وقيسارية، وحيفا، وصفورية، ومعليا، والقلعة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا، بالسيف وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الاماكن.

ذكر فتح قيسارية:

أرسل السلطان بدر الدين دلدرم الياروقي، وغرس الدين قليج، وجماعة من الامراء إلى قيسارية، فافتتحوها بالسيف، وغنموا وأسروا وسبوا.

ذكر فتح نابلس:

أرسل السلطان حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين على سمت نابلس، ووصل إلى سبسطية فتسلمها وتعجل مغنمها، ووجد مشهد

ذكرى النبي عليه السلام، قد اتخذ القسوس كنيسة، وأعادته مشهداً ورده مسجداً ووضع فيه منبراً، ثم أناخ على نابلس وحاصرها، وطال عليه حصارها، ولم يزل عليها مقيماً ولقائها مديماً إلى أن استأمنوا منه فأمنهم، ففتحوا له القلعة، وملكها حسام الدين، ثم إن السلطان استنابه على نابلس ومعاملتها.

ذكر فتح الفولة وغيرها من البلاد:

وكانت الفولة أحسن القلاع وأحصنها، وأملاها بالرجال والعدد، وهي للدواية حصن حصين، ومكان مكين، وكان فيها مشاهير ومصنفهم، فلما اتفق يوم المصاف، خرجوا بأجمعهم إلى مصرعهم، فلما كسروا أسروا وخسروا، وأسلموا الحصن بما فيه إلى السلطان، وكانت فيه ذخائر عظيمة.

ثم تسلم السلطان جميع ما كان من تلك الناحية من البلاد مثل دبورية، وجنين، وزرعين، والطور، واللجون، وبيسان، والقيمون، وجميع مالطرية وعكا من الولايات، والزيب والبعة ومنوات، وغير ذلك.

ذكر فتح تبين:

ولما حصلت تلك الممالك والأعمال للسلطان، رسم لابن أخيه المظفر عمر بن شاهنشاه بقصد حصن تبين، وأن يتوكل على الله ويستعين.

وقال العماد: فوصلنا إلى تبين في ثلاث مراحل، ونزلنا عليه بالنوازل، وبسطنا من المجانيق عليها أيدي الغوائل، فلما أيسوا من الحياة، وعانوا الممات سألوا الأمان من السلطان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم، فأمهلوا، وأطلقوا أسارى المسلمين، فلما جلوا البقعة وأخلوا القلعة سيرهم السلطان ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور.

ورتب في الموضع مملوكه سنقر، ووصاه بتأنيس النافر، وتعكيس الكافر، وأن يصلح خندقها وسورها.

وفي النوادر: نزل السلطان عليها يوم الاحد حادى عشر جمادى الاولى، وهي قلعة منيعة وكان بها رجال ابطال شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معانة شديدة، ونصر الله عليهم، وتسلمها يوم الاحد ثامن عشر الشهر المذكور عنوة، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا متوكلا على الله.

ذكر فتح صيدا:

نزل عليها السلطان بعسكره يوم الاربعاء الحادي والعشرين من جمادى الاولى، فجاء رسل صاحبها بمفاتيحها وفتحت أبوابها، ودخل فيها المسلمون، وأقيمت بها الجمعة والجماعة.

ذكر فتح بيروت:

ثم رحل السلطان من صيدا إلى بيروت، فنزل عليها يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الاولى وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه، وذلك بعد قتال عظيم، وحصار شديد، ونقب لاسوارها، وظهر من تلك الايام ضراب شديد من الداوية فأخر الامر، ولما اشتد بهم الحال خرج أحد المقدمين يستدعي الامان، فأمنهم السلطان فنزلوا على الطاعة، وسلموا البلد في التاريخ المذكور.

وفي النوادر: لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها في هذا الوقت، لأن العسكر كانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب، وكان اجتمع في صور كل فرنجي بقي من الساحل، فرأى قصد عسقلان لان

أمرها كان أيسر، وكان السلطان فتح جبيل يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الاولى، وكان صاحب جبيل اسمه أوك، وهو الذي سلم جبيل الى السلطان وهو على بيروت.

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم:

ونزل السلطان عليها يوم الاحد السادس عشر من جمادى الآخرة، واجتمع السلطان بأخيه العادل عليها، وامتنع أهلها أشد الامتناع، وقاتلوا قتالاً عظيماً فضيق السلطان عليها بالرجال والقتال، ونصب المجانيق ونقب الاسوار، فلما ضاق عليهم الحال راسلهم الملك المأسور وقال: قد بان عذرکم حين نقب السور، فترددت بينهم الرسائل، فقال لهم الملك المأسور لا تخالفوا لما أشير عليكم من الامر، فاسمعوني وأطيعوني واحفظوا رأسي فهو رأس مالکم، فإني إذا تخلصت خلصت، وإذا استنفذت أنفذت، وخرج المقدمون وشاوروا الملك فسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة. ومن استشهد على عسقلان من الامراء الكبار ابراهيم بن حسين الهذباني وهو أول أمير افتتح بالشهادة، وختم بالسعادة، وكان السلطان قد أخذ في طريقه الى عسقلان الرملة ويبنى وبيت لحم، والخليل وأقام بها حتى أنه إذا سلم معاقلهم أطلقه، فسلم هذه المواضع الوثيقة.

ثم اجتمع بالسلطان ابنه الملك العزيز صاحب مصر على عسقلان، فقررت عينه بولده، واعتضد بعضده، وكان قد استدعى الاساطيل المنصورة فوافت والحاجب لؤلؤ المقدم فيها، وغنم الجيش والمسلمون من هذه الاماكن وسبوا شيئاً كثيراً لا يحصى ولا يوصف، واستبشر الاسلام وأهله شرقاً وغرباً بهذا النصر العظيم والفتوحات الهائلة، وترك السلطان جيوشه ترتع في هذه الفتوحات والغنائم الكثيرة مدة شهور ليستريحوا ويجموا أنفسهم وخيولهم ليتأهبوا لفتح بيت المقدس الشريف.

واشتاع في الناس أن السلطان على عزم فتح بيت المقدس، فقصده العلماء والصلحاء والمتطوعة من كل فج عميق، فعند ذلك قصد السلطان بيت المقدس بمن معه على ماذكره ان شاء الله.

وفي تاريخ بيبرس: ولما فتح السلطان عكا فرق عساكره الى جميع الحصون الساحلية فتسلموها أولاً فأولاً، ولم يعد للفرنج قدرة على الدفاع، ولا سبيل الى الاجتماع فتسلموا نابلس وقيسارية وصفورية والناصرية، واستخلف في عكا ولده الافضل، ثم رحل على تبين فحاصرها إلى أن تسلمها، ثم نزل على صيدا فتسلمها، ثم سار إلى بيروت فتسلمها، وتسلم أصحابه جبيل، ورحل إلى عسقلان فنازلها وتسلمها، ثم تسلم الرملة: ثم الداروم، ووصل إليه ولده العزيز من مصر وهو على عسقلان مهنيًا بالفتح، فأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة. وبيت جبريل، والنظرون بغير قتال، وكان بين فتوح عسقلان وبين أخذ الفرنج لها ثمان وأربعون سنة.

وفي المرأة: وكان بين أخذ الفرنج وبين خلاصها منهم خمسة وثلاثون سنة، لانهم ملكوها في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسة ووفوض السلطان القضاء والخطابة الى جمال الدين عبد الله بن عمر قاضي اليمن، وتسلم السلطان هذه الاماكن المذكورة في أربعين يوماً، أولها ثامن عشرين جمادى الاولى، وآخرها ثامن رجب.

وفي تاريخ المؤيد: وفيها حضر المراكيس في سفينة إلى عكا، وأعلم المراكيس بذلك، واتفق هجوع الهواء فراسل المراكيس الملك الانضلي وهو بعكا يقترح أمراً بعد آخر، والملك الافضل يجيب المراكيس إلى ذلك إلى أن هب الهواء، فأقلع المراكيس إلى صور، واجتمع عليه الفرنج الذين بها، ومملك صور، وكان وصول المراكيس إلى صور واطلاق الفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالامان، وحملهم الى صور من أعظم أسباب الضرر التي حصلت، حتى راحت عكا، وقوي الفرنج بذلك.

ذكر فتح بيت المقدس شرفه الله واستعادته من أيدي النصارى بعد ثلاث وتسعين سنة:

ولما فتح السلطان صلاح الدين رضي الله عنه ماحول بيت المقدس من الاماكن المباركة، أمر العساكر فاجتمعت، والجيش المتفرقة في البلدان للغنائم فائتلفت، وسار نحو البيت المقدس بتلك العساكر فنزل غربي بيت المقدس يوم الاحد الخامس عشر من شهر رجب من هذه السنة، أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وقد حصنت الفرنج لعنهم الله الاسوار بالمقاتلة، وكانوا ستين ألف مقاتل دون بيت المقدس أو يزيدون، وكان صاحب البلد يومئذ رجل يقال له باليان بن بارزان، وكان معه من سلم من وقعة حطين من الداوية والاستبارية، فأقام السلطان بمنزله المذكور خمسة أيام، ثم سلم إلى كل طائفة من الجيش المنصور ناحية من أبرجة السور، ثم تحول إلى ناحية الشمال، لانه رآها أوسع وأنسب للمجال، وقاتل الفرنج دون البلد قتالا هائلا، واستشهد بعض أمراء المسلمين فحنق عند ذلك كثير من امراء الاسلام واجتهدوا في القتال وقد نصبت المجانيق والعرادات، فبادر السلطان رحمه الله بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور فنقبها فسقط ذلك الجانب، وخر البرج برمته.

وفي المرأة: وكان المنجمون قد قالوا للسلطان: تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة، فقال: رضيت أن أفتحه وأعمى، وكان قد نزل على غربيه أولاً، ثم انتقل إلى شماليه من باب العمود إلى برج الزاوية، ومن هذا المكان أخذه الفرنج، وكان مشحوناً بالبطارقة من الخيالة والرجال على ما يزيد على ستين ألفاً غير النساء والذرية، وقاتلوا قتالا شديداً.

وفي تاريخ بيبرس: قتل في أول يوم عز الدين موسى بن مالك، صاحب قلعة جعبر، فحزن السلطان عليه.

وفي النوادر: وكان نزول السلطان على القدس يوم الاحد الخامس عشر من رجب، ونصب عليه المنجنيقات، وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية، ولما شاهد الفرنج ذلك قصد أكثرهم السلطان وتشفعوا إليه أن يعطيهم الامان فامتنع وقال: لأفتحها إلا بالسيف عنوة كما فتحتموها عنوة ولا أترك بها أحداً من النصارى إلا قتلته كما قتلتم أنتم المسلمين، فطلب صاحبها باليان بن بارزان من السلطان الامان ليحضره عنده فأمنه، فلما حضر ترقق له، وتشفع اليه بكل ممكن، فلم يجبه إلى الامان لهم، فقالوا: لئن لم نعط الامان رجعنا فقتلنا كل أسير من المسلمين بأيدينا وهم قريب من أربعة آلاف أسير، وقتلنا ذرارينا وخربنا الدور والاماكن الحسنة وأتلفنا مابأيدينا من الاموال والقينا قبة الصخرة، وبعد ذلك نقاتل قتال الموت فلا يقتل واحد منا حتى يقتل أعداداً منكم، فما يرجى بعد هذا من الخير؟ فلما سمع السلطان ذلك أجاب إلى الصلح على أن يبذل كل رجل منهم عن نفسه عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير وصغيرة دينارين، وأن تكون الغلات والاسلحة والدور للمسلمين، ويتحولوا منها إلى مأمئهم، وهو مدينة صور، فكتب الصلح على ذلك، ومن لا يبذل ما شرط عليه إلى أربعين يوماً فهو أسير، فكان من أسر بهذا الشرط ستة عشر ألف انسان من الرجال والنساء والولدان، ودخل السلطان والمسلمون البلد يوم الجمعة قبل وقت الصلاة بقليل، وذلك يوم التاسع والعشرين من رجب.

قال العماد: وهو ليلة الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى إلى السموات العلى.

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وهذا أحد الاقوال في الاسراء والله أعلم.

وكان في القدس بعض نساء الملوك من الروم، قد ترهبت ومعها من الاموال والجواهر والعبيد والخدم شيء كثير، فطلبت الامان لنفسها ولن معها فأمنها السلطان وسيرها إلى مأمنها، وخرجت زوجة الملك المأسور، وهي ابنة الملك ماري، وكانت الاخرى قد ترهبت وتزهدت، ومعها من الاموال والجواهر والخيول والخدم شيء كثير، فخرجت واستأذنت السلطان في اجتماعها بزوجها، وكان محبوساً في برج نابلس، فأذن لها وسارت وأقامت عند زوجها حتى تخلص.

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير من الذهب، فتسلق المسلمون وقلعوه والفرننج ينظرون إليهم، فصاح الناس كلهم صيحة كادت الارض أن تميد بهم، أما المسلمون فصاحوا سروراً بالتكبير والتهليل، وأما الفرنج فصاحوا تغبنا وتوجعاً.

وقال ابن كثير رحمة الله عليه: ولم يتفق صلاة الجمعة يومئذ، يعني يوم دخولهم خلافاً لبعضهم ممن زعم أنها أقيمت يومئذ، وأن السلطان خطب بنفسه بالسواد يومئذ، والصحيح أن الجمعة لم يمكن إقامتها يومئذ لضيق الوقت وإنما أقيمت في الجمعة المقبلة، وكان الخطيب القاضي محيي الدين ابن علي القرشي، المعروف بابن الزكي، كما نذكره، ونظف المسجد الاقصى يومئذ مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير، وخربت دور للداوية كانوا قد ابتنوها غربي المحراب الكبير، وكانوا قد اتخذوا المحراب هرباً ومستراحاً، فنظف المسجد من ذلك كله، وأعيد الى ماكان عليه في الايام الاسلامية، والدولة المحمدية، وغسلت الصخرة بالماء الطاهر، وأعيد غسلها بماء الورد الفاخر، وأبرزت للناظرين، وقد كانت مستورة محجوبة عن الزائرين.

وفي المرأة: ودخل السلطان الصخرة وغسلها بماء الورد، وقيل غسلها بلحيته وهوييكى، وبما الصور منها، وقد كان الملك العادل نور الدين

محمود بن زنكي رحمه الله قد عمل منبراً بحلب وتعب عليه مدة وقال: هذا لأجل القدس الشريف، فأرسل السلطان صلاح الدين وأحضره من حلب، وجعله في الجامع الأقصى، ولما كان في الجمعة الثانية وأرادوا أن يقيموا به الجمعة حضر المسلمون بالحرم الشريف من كل فج عميق، فاجتمع من الاعمال الاسلامية عدد لا يحصى، فلما أذن الظهر حضر السلطان بقبة الصخرة، وكان جماعة من الكبار والعلماء قد رشحوا أنفسهم للخطبة في ذلك اليوم وألفوا خطاباً يخطبون بها، فلما كان وقت الخطبة رسم السلطان للقاضي محيي الدين بن زكي الدين أن يخطب، فرقا المنبر بأهبة السواد العباسية، وخطب خطبة بديعة، ثم إن السلطان رحمه الله أقام حرمة فوق ما كانت.

وفي المرأة: وكان حضر مع السلطان هذا الفتح زهاء على عشرة آلاف عمامة من جميع الاجناس وتناول جماعة من الأعيان إلى الخطابة، فتذكر السلطان قول ابن زكي الدين: وفتحكم حلب بالسيف في صفر
مبشر بفتح روح القدس في رجب

قال القاضي الفاضل: فقد أنطق الله السلطان بالغيب، فأعطاه الخطابة، وابن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق.

وقال ابن القادسي في ذيله: إن صلاح الدين خطب بالبيت المقدس وهو وهم منه، ثم إن السلطان فرق الأموال التي أخذها من الأفرنج، وكانت نيفاً وثلاثمائة ألف دينار، على العلماء والفقهاء والصوفية.

ذكر ما فعله السلطان صلاح الدين بعد فتحه القدس:

فمن ذلك تفرقة الأموال التي أخذها من الأفرنج - كما ذكرنا - ومن ذلك أنه جلس بعد صلاة الجمعة بعد أن خطب الخطيب، ودعا للخليفة

العباسي وللسلطان الملك الناصر صلاح الدين، وسمع وعظ الشيخ زين الدين أبو الحسن علي بن نجا المصري، لأنه بعد صلاة الجمعة جلس على كرسي للوعظ باذن السلطان، فوعظ الناس، وكان وقتاً مشهوداً، واستمر القاضي محيي الدين بن زكي الدين الخطيب بالناس في أيام الجمع أربع جمع، ثم قرر السلطان للقدس خطيباً مستقراً، وأمر الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري يعمل حول الصخرة شبايك من حديد، ورتب لها اماماً وراتباً، ووقف عليه رزقاً جيداً، وكذلك على امام المحراب الاقصى، وعمل للشافعية المدرسة الصلاحية، ويقال فيها الناصرية أيضاً، وكان موضعها كنيسة حنة أم مريم عليها السلام، ووقف على الصوفية رباطاً كان دار البترك إلى جانب القمامة، وأجرى على الفقهاء والفقراء الجامعات والجرايات، وأرصد الختم والربعات في أرجاء المسجد الاقصى لمن يقرأ أو ينظر فيها من المقيمين والزائرين، وتنافس بنو أيوب فيما يفعلونه من الخيرات بالقدس الشريف للقائمين والظاعنين والقاطنين، وعزم السلطان على هدم قمامة وجعلها دكاً لتنحسم مادة النصارى عن بيت المقدس، فقبل إن هؤلاء لا يتركون الحج إلى هذه البقعة ولو تركتها قاعاً صفصفاً، وقد فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه القدس وترك القمامة على حالها، فتركها صلاح الدين أيضاً تأسيساً بأمر المؤمنين، أحد الخلفاء الراشدين، ولم يترك بها من النصارى سوى أربعة أنفس يخدمونها، وحال بين النصارى وبينها، وهدم المقابر التي كانت لهم عند باب الرحمة وعفى آثارها، وهدم ما كان هناك من القباب وعجل دمارها.

ومن ذلك أن السلطان أمر للعماد الكاتب أن يكتب كتاباً إلى بغداد بالفتح، وكان القاضي الفاضل بدمشق مريضاً لم يحضر هذا الفتح، فكتب في أوله: «وعدا لله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات» إلى قوله: «من بعد خوفهم أمناً» [النور ٥٤ - ٥٥] الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك

والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، وبدل الامن به من المخافة، وادخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى لخدام المقام النبوي ومنحه أخلص أوليائه، وأخص أصفياه بعد أن انقضى من الملوك الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنيه، وفوت ترجيه، وتقاصرت عنه الهمم، وتخاذلت عنه الامم، فله الحمد الذي حقق بفتحه ما كان في النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالانس، وجعل عز يومه ماحياً ذل أمسه، وأسكنه العالم والفقير بعد البطرك والقس، وعباد الصليب والشمس، وأخرج أهل يوم الجمعة من أهل يوم الاحد، وقمع من كان يقول بالتثليث أهل ﴿قل هو الله أحد﴾ وقد فتح الخدام بأمر الله من الداروم إلى طرابلس وجميع ماحوت مملكة الفرنج إلى نابلس، وغسلت الصخرة بدموع الباكين من المؤمنين، ونزع لباس اليأس بافاضة ثواب المحسنين، ورجع الاسلام الغريب منه إلى داره، وطلع قمر الهدى من سراره، وعادت الارض المقدسة إلى ماكانت عليه من التقديس، وأمنت المخاوف بها، وفيها فصاحة صباح السرى ومناخ التعريس، وأقصى المسجد الأقصى الأقصون من الله الابعدون، وتوافد إليه المصطفون المقربون وخرس الناقوس برحيل المسيحيين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين، وقال المحراب لاهله: مرحباً وأهلاً، وشمل جماعة المسلمين ما جمع الله لهم فيه شملًا، ورفعت الاعلام الاسلامية على منبره، فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بالسنة عزها: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ [الصف ١٣] وغسلت الصخرة بدموع المتقين من دنس الكافرين، وبعد أهل الاحاد من قربها بقرب الموحدين، وعاد الاسلام باسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه.

وذكر العباد فصولاً في هذا المعنى:

نكتة غريبة: قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الروضتين: وقد تكلم شيخنا أبو الحسن عن أبي محمد السنجاري في تفسير أبي الحكم

الاندلسي، يعني ابن حيان، في أول سورة الروم — أخباراً عن فتح بيت المقدس، وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، قال السنجاري: ولم أره أخذ ذلك من علم الحروف، وإنما أخذه مما زعم من قوله: ﴿غلبت الروم﴾ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون* في بضع سنين﴾ [الروم ٤٢] فبنى الأمر على التاريخ كما يفعله المنجمون، ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا ويغلبون في سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير، ثم قال: وهذه الحالة وافقت إصابة إن صح أنه قاله قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه، قال: وليس هذا من قبيل علم الحروف، ولا بد من باب الكرامات لأنها لا تبان بحساب.

قال: وقد ذكر في تفسير سورة القدر أنه لو علم الوقت الذي نزل فيه القرآن، لعلم الوقت الذي يرفع فيه.

ذكر رحيل السلطان من القدس طالباً صور:

لما قرر السلطان صلاح الدين أمور القدس الشريف انفصل عنه في الخامس والعشرين من شعبان وسار حتى أتى على عكا، ثم سار منها إلى صور، وكانت قد تأخرت من بين تلك النواحي، وقد استحوذ عليها من بعد وقعة حطين رجل من التجار ويقال مركيس، فحصنها وضبط أمرها وحفر حولها خندقاً من البحر إلى البحر، وجاء السلطان بجيشه فحاصرها مدة استدعى بالأسطول من الديار المصرية في البحر، فاحتاط بها براً وبحراً، فعدت الفرنج في بعض الليالي على خمس شواني من الأسطول فملكته، فأصبح المسلمون واجمين، وقد دخل البرد وقلت الأزواد وكثرت الجراحات وكل الأمراء من الحصار، فسألوا من السلطان أن ينصرف بهم إلى دمشق في هذا الوقت حتى يستريحوا، ثم يعود إليها بعد هذا الحين فأجابهم على تمنع منه، وذلك أن السور من صور كان قد هدم أكثره ولم يبق إلا الفرج والنجح، فتوجه إلى دمشق.

وفي المرآة: وفي شعبان سار السلطان إلى صور فوصلها غرة رمضان فوجدها مدينة حصينة وهي في البحر مثل السفينة، والبحر محيط بها من جوانبها، وليس لها طريق في البر إلا من مكان واحد فيه سبعة أبراج، وبها المركيس، وكان شجاعاً حازماً وقد انضم إليه جميع من كان بالقدس والساحل من الفرنج.

وفي النوادر: قدم الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين، صاحب حلب على أبيه، وهو على صور في الثامن عشر من شهر رمضان، وسرّ بوصوله سروراً عظيماً، وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب لاشتغاله هو بأمر الساحل، وكان السلطان خلف أخاه العادل في القدس لتقرير قواعده فاستدعاه، فوصل إليه في خامس شوال، وسير من حاصر هونين فسلمت بأمان في الثالث والعشرين من شوال.

وكان السلطان قد قدم على الاسطول انسانا يقال له الفارس بدران، وكان ناهضاً جلدأ في البحر، وكان رئيس البحريين يقال له عبد المحسن، وكان قد أكد الوصية في أخذ الحذر منهم، فغفلوا عن أنفسهم في الليل، فخرج اسطول الكفار من صور، فكبسهم، وأخذوا المقدمين، وأخذوا منهم خمس قطع وقتلوا قتلاً كثيراً من الاسطول الاسلامي، وذلك في السابع والعشرين من شوال، فلما علم السلطان ماتم على المسلمين ضاق صدره، وأشار بالرحيل ليأخذ العسكر جزءاً من الراحة ويستعدوا لهذا الامر استعداداً جديداً، فرحل عنها بعد أن رمى المنجنقات وسيرها، وأحرق ما لم يمكن نقله، وكان رحيله يوم الاحد ثاني ذي القعدة، ففرق العساكر وأعطاهم دستوراً، وسار كل قوم إلى بلادهم، وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

وقال ابن كثير: ولما وصل السلطان إلى عكا نزل بقلعتها، وأسكن ولده الافضل برج الداوية، وولى نيابتها عز الدين جرديك، وقد أشار بعضهم

على السلطان بتخريب عكا خوفاً من عود الفرنج إليها، فكاد أن يفعل ولم يفعل فليته فعل، بل وكل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش التقوي (٢٣)، ووقف دار الاستار نصفين على الفقراء والفقهاء، وجعل دار الاسقف مارستاناً، ووقف على ذلك كله اوقافاً دارة، وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين بن الشيخ أبي النجيب، وعاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً رحمه الله.

ذكر ماجرى بعد دخول السلطان دمشق:

ولما انفصل السلطان عن عكا وتوجه إلى دمشق جاءتة رسل الملوك بالتهاني من سائر الاقطار والامصار بالتحف والهدايا.

وفي المرة: وصل إلى السلطان من بغداد تاج الدين أبو بكر، أخو العماد الكاتب، فالتقاه السلطان وأكرمه، وكان معه رسالة تذكرة مشحونة بالعتاب على أسباب منها أن الخليفة عتبه لاجل ابن البوشنجي، ويلقب بالرشيد، وكان صبيّاً ببغداد ولا يؤبه إليه، فخرج إلى الشام واتصل بصلاح الدين، وقيل له: هذا من بيت كبير، وكان أديباً فأعجب السلطان، فسأله أن يبعثه إلى بغداد في رسالته فبعثه إلى الخليفة، فقال: ما كان عنده غير هذا؟ وقصر في حقه، فلما عاد إلى السلطان تكلم بكلمات، وقال: ما التفت إلي، ومنها إن كل من هرب من بغداد لجأ إلى السلطان يقبل عليه مثل رئيس الرؤساء وابن هبيرة، وابن أبي النجيب وأمثالهم، ومنها مشاركته في لقب الخليفة بالناصر، وأشياء من هذا الجنس، ثم قال في آخره: يمن علينا بفتح القدس، وهل فتحها إلا بعساكر الديوان وتحت راياته، فاستشاط السلطان غضباً، وقد كان يرجو أن يأتيه كتاب الخليفة يشكره على ما فعل، ثم قال السلطان لأخي العماد: أما ابن البوشنجي فمن عندكم جاء، وقيل لي إنه من بيت كبير وصحبني وسألني انفاذه إلى بغداد ليمن على أهله، ويتجمل بكم، فما

أمكنني رد سؤاله، وأما الذين التجأوا إلي من أرباب البيوت، فإن الانسان قد يلتجئ إلى كوخ عجوز في البرية فتجيره من القتل، فأنا فعلت فعل العرب، وحفظت الدمام، وعرفت حق من قصدي ولجأ إليّ وصنتهم أيضاً عن ألسن الناس فيصير ذلك عاراً عليكم، وأما مشاركتي في اللقب فوالله إنني ما اخترته ولا اقترحته، ولكن لما أزلت دولة عدوه القائمة من مائتي سنة وكسر وفعلت ما فعلت لقبني المستضيء بهذا اللقب، وكتب من بغداد إلى نور الدين بذلك، ولم يكن في زمانكم، ثم لو وقع هذا ففني عسكري عشرة آلاف تركماني وكردٍ لقب كل واحد صلاح الدين فلم أنكر عليه، وأما قوله إنني فتحت القدس تحت راياته وعسكره، فأين راياته وعسكره؟ والله ما فتحت إلا بعسكري وتحت راياتي، وأرعد السلطان وأبرق، وتأكدت الوحشة بينه وبين الخليفة باطنياً، وأمسك السلطان نفسه ظاهرياً، فكتب كتاباً إلى الخليفة يقول فيه: «المحاققة توجب المفارقة، واغلاق هذا الباب خير من فتحه، واندمال هذا الجرح خير وأولى من إتساعه وخرقة».

وقال السبط: وقد ذكر محمد بن القادسي قضية ابن البوشنجي، فقال: كان أمرداً في دروب بغداد، فطلعت لحيته فخرج إلى الشام، فخدم يوسف بن أيوب وسأله أن يرسل إلى الديوان في رسالة فأرسله فقامت القيامة على الديوان، فلما عاد ابن البوشنجي إلى الشام أكثر كلامه، فما مضى إلا اسبوع حتى جاءتته نشابة فذبحته، وكان ذلك عقوبة لما بسط به لسانه.

قلت: وهذه من هنات ابن القادسي، فإنه كان عالماً، يتعمد المثالب، وقد أساء الادب في مواضع منها قوله:

كان أمرداً في دروب بغداد، ومنها قوله على السلطان يوسف بن أيوب، وما ذكره ببعض القابه، ومنها قوله: جاءتته نشابة فذبحته، جعل

الشهادة في سبيل الله عقوبة، وهذه الواقعة في هذه السنة، وابن البوشنجي استشهد في سنة ست وثمانين وخسمائة بعد أخذ الفرنج عكا من السلطان، ومن العجائب في هذه الواقعة أنني اجتمعت بشيخ دار الحديث المظفرية بالموصل في سنة خمس وستائة، وجرت مذاكرة في غزوات صلاح الدين، فقال: حضرت معه في برج عكا، والفرنج قد أخذوا عكا، فبينما أنا قاعد في سوق العسكر، وإذا بشاب من أحسن الشباب قد جلس إلى جانبي، فذاكرته فوجدته فاضلاً فصيحاً من أهل بغداد من بيت البوشنجي، قلت فما اللقب؟ قال: يقبح بي أن ألقب نفسي، فأقسمت عليه فقال: يقال الرشيد، فقلت وما الذي جاء بك إلى هاهنا؟ فقال: سمعت أن السلطان يعرف مقدار اولاد الناس ويحسن إليهم، ورغبت أيضاً في الشهادة فأتيت إليه، فأحسن إليّ وأكرمني وأعطاني، ثم قال: أخاف ان تنقضي هذه الغزوات وما تحصل لي شهادة، فأسأل الله أن يرزقني الشهادة فقد تاقت نفسي إليها، قال: فدعوت الله أن يختار له مافيه الخيرة، ثم قلت: ياسيدي أنشدني شيئاً من شعرك فقال: نعم..... ثم قام من عندي باكياً وقصد الفرنج فاستشهد رحمه الله تعالى.

ذكر من توفي فيها من الاعيان:

الأمير محمود أخو جاولي:

استشهد في هذه السنة، وسبب ذلك أن السلطان وكله بحصن قلعة كوكب الذي على الغور وكانت فيها الاستبارية، وقد كانوا تمنعوا لشدتهم ومنعتهم.

وكانت جيلة وأخذها في الثامن عشر من جمادى الاولى حال وصوله على ماذكره.

وقال العماد الكاتب: وأشرفنا على جيلة يوم الخميس الثامن عشر، وتسلمنا الحصن في ذلك اليوم، وأقام السلطان بها أياماً.

وفي النوادر: ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل السلطان على تل قبالة حصن الاكراد، ثم سير الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا على تيزين في هذا التاريخ، وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بالسلطان في هذه المنزلة، فأقام في منزلته هذه ربيع الآخر أجمع، وصعد في أثنائه إلى حصن الاكراد وحاصره يوماً يحسه به، فما رأى الوقت يحتمل حصاره، واجتمعت العساكر من الجوانب، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر دفعتين، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر، وتقوية العساكر.

ولما كان يوم الجمعة الرابع من جمادى الاولى دخل على تعبئة للقاء العدو، ورتب الاطلاب، وسارت الميمنة اولا، وتقدمها عماد الدين زنكي، والقلب في الوسط، والميسرة في الاخير ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار الثقل في وسط القلب حتى أتى المنزل، ثم رحل في صبيحة السبت ونزل على العريمة فلم يقاتلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت، ورحل عنها يوم الاحد، ووصل إلى انطرطوس ضحوة نهار الاحد السادس من جمادى الاولى.

ذكر فتح انطرطوس:

ولما وصل انطرطوس في التاريخ المذكور، وقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاختيار، ثم اختار النزول، فأمر الميمنة والميسرة بالنزول على البحر من الجانبين، ونزل هو أيضاً في جانب آخر فأجذقت بها العساكر من البحر إلى البحر، وهي مدينة راکبة على البحر ولها برجان حصينان كالقلعتين، ثم أمر الناس بالزحف والقتال، وشدوا عليها

جداً، وما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور وأخذوها عنوة، وغنم العسكر جميع ما فيها، وخرج الناس والاسرى بأيديهم وأموالهم، وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالتهب والكسب ووفى السلطان بقوله، فإنه كان قد عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بأنظرطوس إن شاء الله، وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً، ثم أمر بتخريب سور البلد، وتخريب بيعة عظيمة عندهم كانوا يحجون إليها من اقطار بلادهم، وأمر بوضع النار في البلد فأحرق جميعه، فأقام عليه إلى الرابع عشر من جمادى الاولى، ثم سار يريد جبلة، وكان وصوله إليها في الثامن عشر من جمادى الاولى يوم الجمعة.

ذكر فتح جبلة:

ولما وصل السلطان الى جبلة في التاريخ المذكور أخذ البلدة يوم وصوله، وكان فيها مسلمون مقيمون فيها، وقاض يحكم بينهم.

وفي المرأة: وكان قاضيها منصور بن بليل فأرسل الى السلطان يشير عليه بقصدها، وقيل إن القاضي والاعيان خرجوا إليه وهونوا عليه أمرها، وأخذ القاضي من السلطان اماناً لاهل جبلة، وكان ابرنس انطاكية قد سلمها الى القاضي ووثق به في حفظها فنازلها وفتحها في التاريخ المذكور، وامتنع الحصن عليه يوماً ثم سلموه اليه يوم السبت بالامان بعون الله وفضله وأقام عليها إلى الثالث والعشرين من الشهر المذكور ثم سار عنها يطلب اللاذقية.

ذكر فتح اللاذقية:

نزل السلطان عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الاولى وهي بلدة لها ميناء وقلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد فنزل رحمه الله محققاً بالبلد، وأخذت العساكر منازلهم مستديرين على القلعتين من

جميع نواحيها الا من ناحية البلد، واشتد القتال وعظم الزحف وأخذوا البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة، فإنه كان بلد التجار وفرق بين الناس الليل، وأصبحوا يوم الجمعة مقابلين مجتهدين في النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله ستين ذراعاً وعرضه أربعة أذرع، واشتد الزحف عليهم حتى صعدوا الجبل وقاربوا السور، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة بالأيدي، فلما رأوا ذلك استغاثوا وطلبوا الامان عشية الجمعة الخامس عشر من الشهر المذكور، وطلبوا قاضي جبلة فدخل إليهم ليقرر لهم قاعدة الامان فأجيبوا الى ذلك، فدخل القاضي وقرر الحال معهم على أنهم يطلقون بنفوسهم ونسائهم وذرائعهم وأموالهم خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم السلطان دواب يركبونها الى مأمئهم، ثم رقا عليها العلم الاسلامي المنصور في بقية السبت السادس عشر منه، وأقاموا عليه الى يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الاولى.

وقال العماد رحمه الله: ولما رحل السلطان من جبلة اتى اللاذقية وفتحها في الرابع والعشرين من جمادى الاولى، وهي ثلاث قلاع متلاصقات على طول التل، فلما عرفوا انهم مدركون طلبوا الامان وذلك يوم الجمعة الخامس والعشرين عشية، ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وانتقل الباقون الى انطاكية، ثم رتب السلطان جماعة من خواص مماليكه وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها أهل التوحيد وولى بها سنقر الخلاطي مملوكه، ثم ركب السلطان الى البلد وطافه، وكانت قلعتهم هذه منيعة عالية مرتفعة، ولما ملك صلاح الدين الساحل وهلك الباطل، وافتتحت طبرية وأعمالها، تمنعت من ذلك قلعتان: قلعة صفد بالداوية، وقلعة كوكب بالاستبارية، وتعذر فتحهما، ورتب السلطان على صفد جماعة يعرفون بالناصرية، ومقدمهم مسعود الصلتي، ورتب على كوكب هذا محمود المذكور، وكان ديناً صالحاً مشكور السيرة، فأقام بحصن قريب من كوكب يقال له عفر بلا، وكان يسهر اكثر ليله متهجداً، وقد

جعل منزله مسجداً، فلما كان آخر ليلة من شوال، وكانت ليلة مظلمة مدلهمة خرج أهل كوكب وقت السحر، ومضوا إليه، والناس رقود، والحراس هجود، فما أحس محمود إلا وقد هجم الفرنج عليهم، فجاءتهم الشهادة، وبقي الأمير حتى استشهد محصوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ونقلوا إلى القلعة ما وجدوه من سلاح ومتاع وخيل وكراع، فلما عرف السلطان ما أصابهم ندب إلى كوكب صارم الدين قاياز النجمي فضايقتها وحصرها، ولم يزل عليها مقيماً إلى أن يسر الله فتحها كما نذكره إن شاء الله تعالى.

فصل فيما وقع من الحوادث في السنة الرابعة والثمانين بعد الخمسائة:

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله والسلطان صلاح الدين مقيم على عكا.

ذكر غزوات صلاح الدين وفتوحاته في هذه السنة:

وسار السلطان من عكا في المحرم، وحاصر حصن كوكب، فرآه منيعاً صعباً، ووقته مشغول بغيره، فوكل به الأمير قاياز النجمي في خمسمائة فارس يضيّقون عليه المسالك، وكذلك بصفد، وكانت للداوية، خمسمائة فارس مع طغرل الجاندار، يمنعون وصول الميرة والتقاوي، وبعث إلى الكرك والشوبك جيشاً آخر يحاصرونها ويضيّقون على أهليهما ليفرغ من أموره لقتال هذه الأماكن وحصارها، وسار منها في ربيع الأول ودخل دمشق ففرح الناس به، وكتب إلى ملوك الأطراف باجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام ثم خرج على مآذكره.

وفي المرأة: وكان الذي أرسله صلاح الدين إلى الكرك والشوبك صهره يقال له لوجيا.

وفي النوادر: ولما خرج السلطان نزل على بحيرة قدس غربي حمص، ووافته العساكر بها وأولهم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار ونصيبين، ولما تكمل عسكره رحل ونزل تحت حصن الاكراد وشن الغارات على بلاد الافرنج، وسار من حصن الاكراد فنزل على انطرطوس سادس جمادى الاولى فوجد الفرنج قد أدخلوا انطرطوس، فسار إلى مرقب فوجدهم قد أدخلوها أيضاً، فسار الى صوب جبلة وهز إلى احسانها أعطافه، ثم رحل نحو صهيون.

ذكر فتح صهيون:

ولما سار السلطان راحلاً من اللاذقية نزل على صهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الاولى، واستدار العسكر بها من سائر نواحيها بكرة الاربعاء، ونصب عليها ستة مناجيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل، خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً وهو نقر في صخر، ولها ثلاثة أسوار: سوران دون ريفضها، وسور دون القلعة، وكان على قلعتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الاسلامي وقع.

قال صاحب النوادر: شاهدت ذلك حين وقع، فاستبشر المسلمون بذلك، وعلموا أنه النصر والفتح، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضر بها منجنيق ولده الملك الظاهر صاحب حلب، وكان قد لحقه قبيل فتح جبله بجحفله وعسكره، وحضر فتوحها، ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان على الزحف، وركب وتقدم وأمر المنجنيقات بتواتر الضربات، وما كان ساعة الا وقد رقا المسلمون على أسوار الريفض، واشتد الزحف، وهجم المسلمون الريفض، وانضم من كان فيه إلى القلعة، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلما عاينوا الهلاك طلبوا الامان، فبذل لهم السلطان الامان على أن يسلموا بأنفسهم

وأموالهم، ويؤخذ من الرجل منهم عشر دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير دينارين، وسلمت القلعة، وأقام السلطان حتى تسلم قلاعاً غيرها، وهي: بلاطيس، وعيد، وقلعة الجماهير وغير ذلك .

وقال العماد: وكان تسلم عيد يوم السبت، وقلعة الجماهير يوم الأحد، وقلعة بلاطيس يوم الاثنين، وقرر في كل حصن من تسلمه، ومأمكنوا من الخروج حتى أحضروا ماقرر عليهم، وتولى جباية ذلك شجاع الدين طغرل الجاندار.

وقال العماد: ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارنكين.

ذكر فتح بكاس:

ولما رحل السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة وصل إلى قلعة بكاس سادس جمادى الآخرة وهي قلعة حصينة على جانب العاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، ونزل السلطان على العاصي.

قال النويري: تسلمها يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور، وكان أهلها اخلوها قبل وصول السلطان وتحصنوا بقلعة شغر.

وفي النوادر: صعد السلطان جريدة إلى القلعة، وهي على جبل مطل على العاصي، فأحرق بها من كل جانب، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنقات والزحف إلى يوم الجمعة، ثم يسر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم، وغنم جميع ماكان فيها،

ذكر فتح شغرة

ولما تحصنت الفرنج بقلعة شغرة، وهي قلعة شاذخة منيفة، خيم السلطان بخيمة خفيفة الى الجبل لحصار القلعة فحاصرها في الثالث عشر من جمادى الآخرة يوم الثلاثاء، ثم سلم السلطان حصن بكاس وحصن شغرة الى غرس الدين قلج الساقى.

وفي النوادر: وكان لبكاس قلعة تسمى الشغرة قريباً منها، يعبر إليها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنقات من الجوانب، ورأوا أنهم لناصر لهم، فطلبوا الامان، وذلك في يوم الثلاثاء، وسألوا ان يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية، فأذن السلطان في ذلك، وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطاني على قلتها يوم الجمعة السادس عشر منه، بعون الله تعالى وفضله.

ذكر فتح سرمانية:

ولما فتح السلطان حصن شغرة، أرسل ولده الملك الظاهر صاحب حلب، فحاصر سرمانية وأخذها بالامان، وهدم الحصن وعفى أثره.

وفي النوادر: أرسل صلاح الدين ولده المذكور الى قلعة تسمى سرمانية، يوم السبت سابع عشر جمادى الآخرة فقاتلها قتالاً شديداً، وضايقها مضايقة عظيمة، وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر المذكور، فاتفقت فتوحات الساحل من جبله الى سرمانية في أيام الجمع، وهي علامة قبول دعاء خطباء المسلمين، وسعادة السلطان رحمة الله عليه حيث يسر له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات، وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية، ولم يتفق مثلها في تاريخ، وكان في هذه الحصون المذكورة من أسرى المسلمين عدد لا يحصى، فأطلقوا وأعطوا النفقة والكسوة.